زين الدّين

بارون الميج

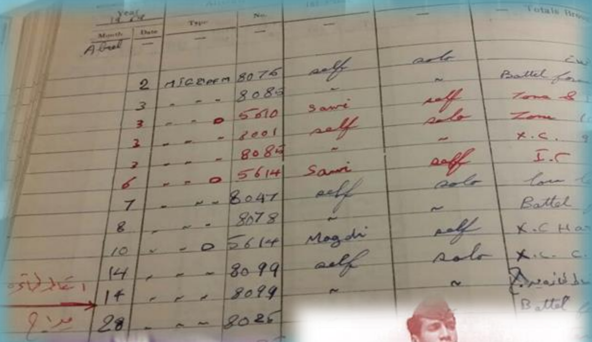

بارون الميج

المؤلف: زين الدين

مُراجع لُغوي: مرح شيحا

تصميم الغلاف: زين الدين

رقم الإيداع: 2017/25020

الترقيم الدولي: 978-977-90-5077-5

الطبعة: الثانية/2021

الناشر:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز النشر أو الطبع إلّا بإذن المؤلف، ولا يجوز الاقتباس دون الإشارة للمصدر

مُبادرة كتاب وابتسامة محتاج

إذا وصل هذا الكتاب إلى يدك بطريقة غير مشروعة ،فتصدق بما تقدر عليه من ثمنه

النَّاس مهما اختلفت أديانهم وألوانهم وألسنتهم بينهم نوع من الروابط، ويواجهون نفس المصير، وإن بدت البدايات والنهايات غيرمتشابهة، فالحياة لها وجه واحد يتكررو ينعكس. والأحداث التاريخية مهما كانت متباعدة بينها ترتيب وتكرار دقيق، فما يحدث في مكان ما سوف تعكسه آلة الزمن في مكان آخر عاجلا أو أجلا، لذا ولكي نغير و اقعنا يجب أن نفتش في أوراق الماضي عن قدرنا، فالماضي لا يمضي.

إنَّ الشعب يجب أن يبقى دائمًا سيد كل فرد وقائده، فالشعب أبقى وأخلد من كل قائد مهما بلغ إسهامه في نضال أُمّته.

- جمال عبد الناصر.

أنا الشعبُ والمعجزة، أنا الشعبُ لا شيء قد أعجزه، وكل الّذي قاله أنجزه.

- أغنية لأم كلثوم.

لأجل مَلكْ، لأجل الأجيال القادمة،

لأجل عابر سبيل، خضر.

- استهلال -

بوم......

بالنسبة إليّ، سمير عزيز، الموت والحياة وكلّ شيء يبدأ بصوت خرطوشة اِسكرامبل، انفجار يُعبئ ذرات الهواء بالموت، يملأ الأرجاء ويدخل أجساد الطيارين، بعدها بثوانٍ تنطلق طائرات الميج الحربية مُحلقة في السّماء، مثل صف من الفتيات الجميلات؛ فكما يقول الروس: «الطائرة الجميلة تُحلق جيدًا».

بعد انتهاء ربيع العام 1943 بسبعة أيام، عصرًا، انطلقت أوّل خرطوشة اِسكرامبل من حنجرتي، مُعلنة قدوم أوّل طفل للمهندس عزيز ميخائيل، ودوى صراخي (المزعج) في جوانب حي شُبرا. بالتأكيد لا أتذكر ذلك اليوم، لكني أتذكر جيدًا أول خرطوشة اِسكرامبل انطلقت من حنجرة ابنتي سالي، ثم نادر، الذي انتهي صوته الجميل في شرم الشيخ، بالكاد أكمل الثالثة والعشرين. عظيمة هي كلّ أفعالك يا رب، حتى وإنّ لم أفهم لماذا؟

مع نادر طفلًا

مع العائلة

من الأشياء الّتي لا تُنسى، صوت خرطوشة إسكرامبل انطلقت يوم الثامن من أكتوبر 73، قبل وصول المغرب بساعة واحدة، ما زال صوتها يرن في أذنيَّ كجرس مزعج.

انتهى بي الأمر ذلك اليوم في سرير بمُستشفى المنصورة[1] مُستلقيًا على ظهري، حينما استيقظت كان كلّ شيء غارقًا في الصمت، وزوجتي الرائعة تحبس دموعها، متوترة كالجحيم، وتنحني على كتفي الأيسر، والطبيب يقف عند قدميّ ويغرس الإبرة فيهما، ولم تؤلمني، أنا لا أشعر بكل عظمة في نصف جسدي الأسفل!!!، أردت أنّ أمسك يد زوجتي و أقبلها، لكن ذراعي الّتي بجوارها لم تستجب، هددتها، نظرتُ إليها بطرف عينيّ ولم أحرك رأسي، تحركت ببطء. أصابني الذهول، حاولتُ تحريك ساقي، أصابع قدمي، لكن بلا فائدة، كلما فشلتُ في تحريك عظمة انفتحت عيناي أكثر وتسارعت دقات قلبي، صرخت حتى أتأكد أنني لم أفقد النطق.

أصابني اليأس وتوقفت، حبستُ أنفاسي، نظرت في الوجوه حولي، ما يحدث غير منطقي؟، أنا أحلم؟، أصبحتُ مشوشًا، أوه، «شلل نصفي وكسر في العمود الفقري»، قال الطبيب.

مر على زواجي شهران فقط، زفرت زوجتي بصوت عالٍ. الحب في عينيها لا يحتاج إلى إثبات، ضغطت على يدي الّتي بجوارها ورفعتها ناحية فمها، قبلتها، لم أشعر بشيء وكأنها ترفع يد غيري.

---

1 مدينة مصرية بقلب دلتا النيل.

إنّ كان «أوليفرساكس[1]» قد صرخ يومًا ما وسط الغابة النرويجية قائلًا: «أريد ساقًا أقف عليها»، فأنا في ذلك الوقت صرختُ من داخلي مرات ومرات: «أريد عمودًا يُقيم ظهري، أريد ألّا أسقط حينما أقف، أريد ألّا أنسى قدميّ».

حسنًا، لم يكن ذلك اليوم أصعب أيامي وأشدها قسوة، ولتكن البداية قبل ذلك اليوم بست سنوات وأربعة أشهروثلاثة أيام.

***

[1] طبيب أعصاب بريطاني وكاتب.

- أفضل أوقات الرجال -

بوم....

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية دكت طائرات ستوكا النازية لندن والمدن الكُبرى، وكان مقر الحكومة البريطانية هدفًا للقاذفات، تحت القصف قال تشرشل[1]: «إذا عاشت الإمبراطورية البريطانية مُدة ألف سنة، فسيظل الرجال يقولون إنّ هذه كانت أفضل أوقاتهم».

5 يونيو/ حزيران 1967...

مطار فايد، السادسة صباحًا...

داخل طائرة ميج 21 ما زال كتاب الطيران الخاص بي يتذكر رقمها، 5072، كنتُ أقضي نوبة طوارئ حالة أولى، وهذا يعني أنني يجب أنّ أظل في قُمرة الطائرة لمدة ساعتين مُستعدًا للإقلاع في أقل من دقيقتين. و أنا داخل القمرة كان الممر يمتد أمامي كبساط، وهناك طائرات من الخشب في أرجاء المطار بعيدًا عن ممرات الإقلاع والهبوط، تبدو حقيقية تمامًا ويصعب تمييّزها من السّماء.

السّماء صافية وملائمة للتحليق، أخذتُ أمرر في قنوات عقلي كلام قائد السرب: «أموزيس ميخائيل»، يرقد في طائرة بجواري، نظرتُ ناحيته فوجدتُه غارقًا في شيء ما، وددتُ لو أنّ للطائرة كلكس، أضغط على زره، «تيييت

---

[1] ونستون تشرشل، رئيس وزراء المملكة المتحدة إبان الحرب العالمية الثانية.

تيييت»، فأجذب انتباهه. عند سلم الطائرة سألته: «يا أفندم، تتوقع أنّ تندلع الحرب اليوم؟»، راوغ وقال: «إنّ أراد الربُ ذلك». لم أتمسك بالسؤال، ابتسمتُ و أنا أصافحه ولبستُ خوذتي وصعدتُ سلم الطائرة. لا يعلم أموزيس أني قضيت الليلة السابقة في انتظار هجوم إسرائيلي، فالليل هو الوقت المناسب لهجوم الجيوش والذاكرة، كما الأفكار السيئة تقضي ساعات النهار في تنظيم صفوفها، وتبدأ هجومها حينما يستلقي المرء على الفراش لينام.

ثمة ما يُشبه الإجماع على أنّ الحرب لن تندلع اليوم، تم إطفاء الدفاع الجوي لأنّ طائرة المُشير عامر ستزور المطار ربما بعد ساعة، ورغم ذلك لم أكن مرتاحا تمامًا؛ فإسرائيل تحشد قواتها (علنًا على غير العادة!!) على حدود الحبيبة سورية، وبيننا مُعاهدة دفاع مُشتركة، وأغلق ناصر خليج العقبة في وجه السُفن الإسرائيلية، والأسطول السادس الأمريكي في البحر المتوسط يُحدث موجات تتقاذف على شواطئنا، وأصحاب القبعات الزرق (قوات الأمم المتحدة) رحلوا وتركونا مع الإسرائيليين وجهًا إلى وجه، بعدما اتهمنا البعض بالاختباء خلفهم، برحيلهم تعقدت الأمور أكثر وأكثر، لا يفصلنا عن العدو إلاّ جدار من الهواء الهش، أيّ رصاصة طائشة، أيّ شرارة، مهما كانت ضئيلة من شأنها أنّ تفجر باب الحرب وتوقظ المدفعية من نومها، ستخرس جميع الأصوات، سكون تام لثانية واحدة لا مزيد، الهرج قادم، الضجة قادمة، الحرب، لن ينتظر أحد إشارة البدء، «بوووو، بوووو، بوووو، ......، صراخ المدفعية المزعج جدًّا، والبعض في إسرائيل يُفضل هراء المدفعية على السكون، خلال أجزاء من الثانية ستعدو القذائف في كلا الاتجاهين في آنٍ، واحد نحو نقطة الوصول وهي (مع الأسف) أجساد البشر.

***

في عقلي «راجعين بقوة السلاح»، أنشدتها أم كلثوم لفلسطين قبل أيام قليلة في سينما قصر النيل، وبجوار كلمات الأغنية مشهد تحليقي بطائرة ميج مع ثلاثة طيارين مُباشرة فوق حاملة طائرات ترفع علم الولايات المُتحدة الأمريكية، تعبر قناة السويس ناحية الجنوب، على ارتفاع متر تقريبًا طرتُ فوق مدرج الطائرات القصير على سطحها، وكان جناح الطائرة قريبًا من زجاج مركز مراقبة الطائرات، حلقنا فوق برج المُراقبة، وطفنا حوله، كأننا في عرض عسكري، الأوامر هكذا. لم يكن هناك أيّ شخص على سطح السفينة والطائرات آمنة داخل الحظائر أسفل السطح، بالتأكيد كان ذلك عملًا مُستفزًا لأقوى دولة في العالم، كررنا استفزازها مرة أخرى حينما وصلت البحيرات المُرة، بعدها أمام عينيّ دخلت سيناء أرتال مدرعات ودبابات لمدة ثلاثة أيام متتالية دون انقطاع، شعرتُ بالفخر والقلق، تمنيتُ لو يعرف القادة أننا لسنا في عصر الفرسان الشجعان وخط ماجينو[1]، وأنّ الجانب الأكثر عددًا ليس بالضرورة أنّ ينتصر.

حاولتُ التفكير في أبويّ وأختي ماجدة (أجد لذة في نطق اسمها)، وحينما فشلت أدركت أنّ حربًا لا مفر منها احتلت جميع خلايا عقلي (وما زالت تفاصيلها تعيش في ذهني حتى الآن)، لم أكن خائفًا لكنه الانتظار. يا إلهي، هل ستندلع الحرب قبل أن أتعلم العزف على الجيتار وأصبح مشهورًا مثل: إلفيس برسلي، ملك موسيقى الروك أند رول؟

بالمناسبة، قبل عام واحد، تألق برسلي في فيلم: أحبيني أكثر.

***

الثامنة صباحًا وكثير...

---

[1] سلسلة من الدفاعات والتحصينات أقامتها فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى لصد أيّ هجوم مُحتمل للقوات الألمانية.

كنتُ أحلق ذقني في استراحة الطيارين عند نهاية الممر، وجيتاري يسند ظهره على الحائط، لا يفارقني إلّا حينما أكون في الطائرة أو الحمّام، اشتريته قبل ستة أشهر بثمانية جنيهات من محل بجوار سينما مترو. أصابته اللعنة، لا يُصدر إلّا أصوات أكثر إزعاجا من طبول الحرب وعصا المنجد حينما ترتطم بكومة القطن، ورغم سخطي عليه ما زلتُ لم أفقد الأمل بعد، فأنا أعلم أنّ برسلي بدأ مشواره الفني بالعزف داخل الحانات، لذا عقدتُ العزم على تعذيب زملائي الطيارين بالاستماع إليّ و(الاستمتاع) على الأقل مرة واحدة يوميًا.

بووووووووووووووم...

حسنًا، أحد الطيارين اخترق جدار الصوت بينما شفرة جيليت تحرث نصف ذقني الأيمن، داخل أذنيّ انزلق الصوت مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة، في كل مرة تهتز الأرض بشدة، وقع انفجار قريب كاد أنّ يقتلع الاستراحة من جذورها، بقيتُ واقفًا، توقفتُ عن الحركة وحلق ذقني كي أستمع جيدًا للأصوات الخارجية وأجمعها وأعيد تقييم الموقف، إنّه مُجرد طقس سيء، حاولتُ طرد فكرة القصف، الهجوم!!!

سكت صخب «بوووووم» الفاشي والعالي على نحو لا يُطاق وظهر بالمقارنة به صوت رخيم عذب، زعيق بشر ودوى طائرات قريب. التفتُ خلفي فوجدتُ أموزيس يهرول ناحيتي ويزعق: «بسرعة، الطائرات الإسرائيلية تضرب المطار الآن»، لم يكن عندي ردٌ مُناسب، استدرتُ كي أغسل وجهي فاقترب أموزيس وجذبني من ذراعي بقوة.

كانت الساعة تقترب من التاسعة إلّا عشر دقائق حينما سمعتُ نهيق الطائرات الإسرائيلية فوق رُءوسنا دون أنّ تسبقها صافرة إنذار واحدة، أو إعلان بالحرب، هناك خطأ ما، خطأ فادح تسربت منه الطائرات المعادية.

قُضي الأمر، قص الآثمون شريط الحرب وكسروا أبواب الجحيم، لم يكن ذلك مفاجئًا، لكن ما حدث بقية اليوم أكثرمن مفاجئ، ولم يسبق لأحد منا أنّ شاهد مثله.

***

- لا تطلق الرصاص على طائرة -

السطور التالية تؤكد أنّ الحروب أعظم انتصار للشيطان على البشر، لكن قبل تدوينها أود أنّ أنقل إليكم صراعًا بداخلي، فأنا أُومن أنّ الأوقات العصيبة لا بُد من تلخيصها حينما تروى، وذلك لما تجره من انفعالات ودموع، لكن في الوقت ذاته اعتبر الأوقات العصيبة رواية جيدة يصعب اختصار أحداثها أو حذف كلمة منها.

ذقني مقسومة لنصفين، نصف محلوق والثاني به شعر قصير كرُءوس دبابيس مُلتصقة ببعضها.

خارج الاستراحة، فوضى ونيران، رأيت نائب رئيس الجمهورية، حسين الشافعي، رجل بقي الكثير من وسامته، له شارب مميز وشعره ممشطًا على جنب، ومعه شخص آخر، عرفتُ فيما بعد من برج المراقبة أنه نائب الرئيس العراقي أو وزير الحربية العراقي، يهرولان وسط النيران وخلفهما على الممر طائرة اليوشن.

قفزتُ مع أموزيس داخل سيارة جيب روسية، وانطلق بها على الممر الفرعي (sub ran way) ناحية بداية ممر الطائرات، هناك دخان أسود يتصاعد من كل ناحية وبداخله نار حمراء كالجحيم، تقف في طريق السيارة قنبلة موقوتة بحجم رجل ضخم (ألف رطل)، انحني أموزيس حولها، طلبت من الله ألّا تقوم من سباتها الآن، واستجاب الله لرجائي. حينما وصلنا إلى بداية الممر رأينا طائرات الميج 21 الأربعة تحترق ويتصاعد منها الدخان. بسرعة عالية لف

أموزريس وجه السيارة ناحية نهاية الممر، هناك تبرك أربع طائرات أخرى (حالة طوارئ ثانية)، مكشوفة وجاهزة للقصف، ترتص في صف واحد وبين كل واحدة والأخرى نحو ثلاثة أمتار. أوووه؛ عادت الطائرات الإسرائيلية في موجة ثانية، أربع طائرات، أتذكر جيدًا ما حدث وكأنه وقع اليوم، الطائرات تحوم فوق رُءوسنا وتُحدق بنا من ارتفاع مائة مترتقريبًا، ونحن أيضًا كنا نُحدق بها، هبطت من السّماء بواسطة مظلة قنبلة ممر فحفرت حفرة في الممر قادرة على ابتلاع رجل دون أنّ يملأ جوفها أو يسد جوعها، ابتعد أموزيس بالسيارة، حدثت زوبعة هائلة من الشظايا كادت تصل إلى السّماء، قُصفت طائرة ميج على الأرض فاحترقت و انطلق منها صاروخ ناحية طائرة سوخوي 7 أمامها فاحترقت، وخرج منها صاروخ ناحية طائرة أخرى، وهكذا، الأمر يُشبه عربات قطار تجر بعضها إلى الجحيم.. وصل الدور إلى الطائرات الخشب، كل ما في الأمر؛ اقتربت الطائرات الإسرائيلية منها وسلطت طلقات المدفع الرشاش (30 مم) عليها فأصبحت فورًا نسيًا منسيًا.

عُدنا إلى استراحة الطوارئ في بداية الممر، بدت وكأنما قصفها نيزك من السّماء أو تعرضت لهجوم نووي صغير فتتها إلى سحابة من الغبار، سُوّيت بالأرض، ولم يتبق منها إلّا حرائق صغيرة وركام بداخله جيتاري وأحلامي الموسيقية ودفتر ملاحظاتي.

نبشتُ ركام الاستراحة وأخرجتُ بعض ملابس الطيران، جميعها مجروحة، لم أعثر على قفازات، نفضتُ التراب من عليها ورتبتها، وأموزيس يقف بجواري مُصدومًا، حدق بي لنصف دقيقة أو أكثر قليلًا ثم قال: «ماذا تفعل؟»، لم أتكلم فقال في يأس تام: «أين الطائرات الّتي ستطير بها؟»

طمعًا في المزيد من المعلومات والأخبار، أخذتُ «يسري رياض» إلى غرفة عمليات المطار، عبارة عن بناء تحت الأرض، نزلتُ معه سلم يُشبه سلالم السراديب يؤدي إلى ساحة باب الغرفة، وبينما كنا نقف أمام الباب الحديدي نشتكي مما حدث ونتحسر على خسارة الطائرات، استهدفتنا طائرة إسرائيلية بصاروخ، انفجر بالقرب منا فاهتز الكون، انبطحتُ على الأرض، رأيت أقداما تركض ناحية السلم، حاول يسري أن يبتعد، رجع إلى الوراء ناحية حائط الغرفة لكن الأوان فات، لحقت به شظية و انغرست في فخذه، صرخ مرة أو مرتين، نزل على الأرض ولم يستطع النهوض. اشتعلت نيران جهنم حولي، لم أستوعب ما يجري وتجمدتُ لثانية كعقرب ساعة فرغت بطاريتها فجأة، كان توجسي عظيمًا، بينما أبحث عن عمل، فتح الميهي باب غرفة العمليات (يعمل موجه أرضي، يقوم بتوجيه الطيارين وهم في السّماء ويضعهم في مو اقع أفضل من طائرات العدو، أفضل تسميته المُرشد اللاسلكي أو الموجّه)، خرج الميهي يرتدي أفرولا وفي يده مطفأة حريق يدوية، أطفأ ألسنة النيران بسرعة ودخل مرة أخرى وأغلق الباب.

***

كنا على مقاعد المُتفرجين نتابع طائرة تدور في سّماء المطار للمرة الثانية كأنها في عرض عسكري، أن تُحلق فوق الهدف لقصفه فهذه جرأة، أما أن تظل في سّماء الهدف لترى ماذا حدث؟ أو تبحث عن هدف آخر فهذا استهزاء وربما وقاحة، إهانة عظيمة، لم يحتمل أموزيس السكوت أشار إلى الطائرة وصرخ وكفيه يصطدمان: «فين الدفاع الجوي؟». مدفوعًا بقوة خفية هرولتُ بسرعة ناحية مدفع مضاد للطائرات يرقد فوق غرفة العمليات، قفزتُ فوق سطحها (يظهر منها متر تقريبًا فوق الأرض)، حاولتُ بلا فائدة استخدام المدفع، اقتربت طائرة

مستير مني، شعرتُ بالتوتر وقفزتُ من فوق المدفع والغرفة، دمرته الطائرة بصاروخ وتناثر في الهواء.

مرت الدقائق الأسوأ فـ... الأسوأ فـ... الأسوأ، تتابعت موجات الطائرات الإسرائيلية، حتى أن الموجة الأخيرة وجدت أنّ المطار قد شبع من القصف ولم يعد به سقف، لم تجد شيء ترميه بالقنابل إلّا سيارات نقل الوقود للمطار (البوازر)، كانت الواحدة تنفجر بقوة وتذوب إلى شظايا صغيرة ويتصاعد منها دخان أسود كثيف، وهناك صاروخ تولَّى أمرّ طائرةً هارفارد صفراء هزيلة، بمقعدين وذات محرك واحد (طائرة غير مُقاتلة، تُستخدم في البريد العسكري، وتبادل الوثائق السرية مع قيادة القوات الجوية)، دخل في مُنتصفها فانفجرت بهدوء كما عاشت بهدوء.

(في مقابلة تلفزيونية سُئل عبد الناصر: «إنّ كانت إسرائيل ستهاجم العرب؟، قال: «إننا ننتظرهم». في الواقع كان بعيدًا عن الجيش وتم استغفاله، طعن من الخلف.)

حينما انتصف النهار أخبرنا قائد السرب (أموزيس) أنّ رئاسة القوات الجوية أصدرت أمرًا بإخلاء المطار، لشيوع معلومة أنّ الهجمة القادمة ستستهدف الطيارين أنفسهم، بغرض تصفيتهم والتخلص منهم، طلب منا أموزيس سرعة إخلاء المطار، نظر كل منا إلى وجه الآخر وهززت رأسي بصمت وألم.

***

قدتُ سيارة فولجا بيضاء مُقدمتها طويلة، بجواري «ممدوح حشمت» وفي المقعد الخلفي «فريد حرفوش» وطيار ضاع اسمه مني، وانطلقتُ بالسيارة ناحية فايد، كانت في ذلك الوقت بلدة صغيرة بيوتها مصنوعة من الحجر الأبيض، بها محاجر كثيرة.

في الطريق، كانت الصدمة على وجوهنا، وأمسكنا عن الكلام. سألتُ نفسي: «أهكذا تموت الأوطان؟»، حاولت ارتداء قناع الأمل بأنّ الشمس الحارقة الّتي تختفي خلف سحابة من دخان الانفجارات، سوف تعود في اليوم التالي وكأن شيئًا لم يحدث، سينتهي هذا الكابوس المزعج بمجرد أن أفتح عينيّ.

نزلنا من السيارة، وقفنا على مقربة من حائط مبني بالحجر الأبيض، ارتفاعه ضعف رجل بالغ، حتى الشمس في ذلك اليوم كانت قاسية، بإمكاني رؤية الأدخنة السوداء تتصاعد من المطار ودخان السجائر يطوق عُنق فريد حرفوش.

هناك طائرة «سوبر مستير» عائدة من قصف المطار، تطير على ارتفاع منخفض لا يزيد على ستة أمتار، تقترب من رُءوسنا، مرسوم عليها نجمة داود داخل دائرة بيضاء، بلا صواريخ أسفل الجناحين، هؤلاء الذين أخذوا المطار على حين غرة وفي دقائق حولوه إلى أكوام من الخردة.

دون أن أشعر، وبدافع الانتقام والاحتفاظ بشيء من الكرامة، نزعت المسدس من غمده فوق صدري، استقبلتُ الطائرة بالأعيرة الناريّة و أفرغتُ مخزن الطلقات في جسدها، نظر إليَّ الطيار وتلاقت أعيننا للحظة واحدة، أكمل طريقه، كأنما كنتُ أقول له: «حسنًا، لقد عرفت وجهي، تذكرني لأننا سنلتقي مرة ثانية في السّماء، لكني المرة القادمة سأدك طائرتك كذبابة». بعدما ابتعدت الطائرة، سألت نفسي: «ماذا تفعل طلقات مُسدس مسكينة في طائرة؟ وهل ستعيد عدة طلقات إلى وطن كرامته؟»

نظر إليّ «فريد حرفوش» و ابتسم «فاروق حمادة» (تذكرتُ اسمه الآن) وأشار بيده بعلامة رائع like. فجأة اندفعوا أسفل جسد السيارة، وصرخ أحدهم: «خلي بالك الطيارة نازله عليك يا سمير»، التفتُ خلفي فوجدت الطائرة تطير

في مستوى رأسي وتقترب مني بسرعة عالية، لها فم واسع (مدخل للهواء) يُشبه فم «إسماعيل ياسين[1]»، تخيلتُ في جزء من الثانية أنّ شفتيها ترتشفني من بعيد وفمها يبتلعني.

فتحت عينيّ على اتساعهما، عاد الطيار الإسرائيلي لينتقم.

***

[1] مُمثل كوميدي مصري.

- جنون الشجاعة -

أومن أن الذين يقومون بأعمال شُجاعة يمتلكون قدرًا لا يُستهان به من الجنون.

الأرض مُنبسطة ولا تخفي شيئًا وهناك طائرة متفرغة لمطاردتي، طيارها عقد العزم على الانتقام لتشويه طلقات مُسدسي طلاء طائرته، لو ركضتُ أمام الطائرة بالتأكيد ستلحق بي ويُصبح مدفعها الرشاش في ظهري وربما تأخذني في طريقها، قررتُ الركض في اتجاهها، بدت كشلال ضخم يقترب وله صوت مُخيف، فتح الطيار النارعليّ من بعيد بكثافة، كنتُ أسمع صوت الطلقات تمر بجواري وتثير الغبار حينما تدفن في الرمال، ورأيت بعيني دخان أسود يُصاحبها وهي خارجة من المدفع المثبت في الطائرة.

كانت الطائرة تقترب بسرعة جنونية يسبقها كم هائل من الطلقات، وحينما أصبحت على بعد خطوات مني، رميت نفسي على حائط حجري، لطم هواء الطائرة جسدي وسمعت صوت «فوووووو».

مرت الطائرة فوق أذني اليُمنى.

***

لم يخلق الله كابوسًا قصيرًا.

عدنا إلى المطار، أمرنا أموزيس بالذهاب إلى السلاحليك (غرفة السلاح)، وهناك تسلم كل طيار بندقية كلاشينكوف بالذخيرة للدفاع عن المطار، وزعت الذخيرة ببزخ شديد، وبعد نحو ساعة صدر أمر بالتوجه إلى مطار إنشاص.

انضم إلينا في السيارة الرائد طيار «حسين عزت»، لم يبتسم حينما رأني بنصف ذقن محلوقة، ولكنه نظر إلى ذقني قليلًا. طوال الطريق، كلّ رّجل يُقيم بندقيته الكلاشينكوف بين فخذيّه أمّا بندقيتي فظلت بجواري بين باب السيارة ومقعدي، لم ينبس أحدنا بكلمة، وكأن ما حدث هزيمة شخصية لكل واحد فينا، فالأوطان لا تُهزم بل الناس. لم يحاول أحد كسر جدار الصمت الذي يلف السيارة، صمت مُخيف، فكرت في أبويّ وأختي والناس أجمعين، سقطتُ في بئر أسئلة لا قعر له، هل قصفت إسرائيل مدرستي (التوفيقية الثانوية الّتي كانت قصرًا لتوفيق باشا[1])، الشارع الذي كنتُ ألعب فيه بشبرا، حديقة المريلاند في مصر الجديدة، كبائن المنتزه في الإسكندرية، فندق شبرد، جروبي؟[2]، هل رأت صباح[3] وجه جمال عبد الناصر اليوم؟ «أنا شوفت جمال والنبي يامه أنا شوفت جمال»، هل بوسعه الإجابة عن كل الأسئلة أين الدشم (مخابئ تحمي الطائرات من القصف) و أين كنت؟ وفي نوبة فزع تخيلت سماء القاهرة الّتي لا شيء يحميها الآن مكدسة بالمظلات، وقد قامت إسرائيل بعملية إنزال تُشبه

[1] قصر ملكي تنازل الخديوي توفيق؛ والي مصر والسودان عنه إلى نظارة المعارف (وزارة التعليم).

[2] من معالم القاهرة، متجر لبيع الحلوى والشوكولا، أسسه رّجل سويسري يُدعى جاكومو جروبي.

[3] مُغنيّة ومُمثلة من أصل لبناني.

إنزال النورماندي و إنزال الإنجليز في بورسعيد أيام حرب السويس، لا أبالغ، فكل شيء سيء يمكن أن يحدث في ذلك اليوم.

شكرتُ الله ألَّا بحر في القاهرة ينزل الغزاة على شاطئه. وتذكرتُ سؤال هتلر الشهير: «هل باريس تحترق الآن؟»، هل سيكون هناك «ثلاثون ثانية فوق القاهرة؟»، ماذا يمكن أن يقع أكثر من هذا؟

حاولت أن أقول لرفاقي: «أطلب منكم معروفًا، إن أصابني مكروه، أبلغوا سلامي إلى أبي وأمي وأختي، قولوا لهم أني أحبهم جميعًا»، بينما تتجمع الكلمات عند لساني نزلت دمعة على خدي، حاولت إخفاءها، لم ينتبه إليها أحد فكلّ واحد فيهم كان مُصوبًا عينيه في اتجاه، وساكنًا مثل مقعد في حدائق القناطر الخيرية، خشيت إنّ حاولت الكلام أنّ تنزلق آلاف الدموع رغمًا عني، فسكت.

نظرت إلى وجوه رفاقي خلسة، المحشورين في المقعد الخلفي نظرت إلى وجوههم في المرآة، تذكرت دفعتي؛ الدفعة 14، زملائي الذين خرجوا من سجن الدنيا إلى رحاب السّماء. سلامة؛ استشهد أثناء التدريب، اصطدمت طائرته بالأرض و انفجرت، كان ذلك نهاية العالم بالنسبة إليّ، حزنتُ عليه ثلاثة أيام متتالية. نديم، في فرقة الميج 21؛ النُخبة فقط يُسمح لهم بلمس الميج 21؛ قبلها يُدرس تاريخهم بعناية ويخضعون لمُقابلات لتحديد إنّ كانوا مُلائمين، ثم يُقذفون داخل تدريبات مُكثفة. سألت نفسي إنّ كان أحدهم غادر الدنيا اليوم!! كنتُ على يقين أنّ الحرب ستبتلع الوجوه بالتدريج، لكل واحد دور في الموت، إنَّها مسألة وقت فقط، في النهاية لن يتبقى إلّا واحد أو اثنان، وربما لا أحد، فكل ما على الجندي فعله في الحرب هو قتل أكبر عدد من الأعداء (البشر) دون أنّ يموت.

نافذتي في السيارة تطل على ترعة الإسماعيلية، وعلى فترات مُتقاربة تمر بسرعة قرى صغيرة بيوتها من الطين على جانب الطريق، وأمام كل قرية درج يصل بين الشاطئ ومياه الترعة، عليه بعض النساء يغسلن أواني الطبخ في المياه، رأيت حقولا على جانبها أكواخ للبهائم لها سقف مُغطى بكميات من القش، سقف غَلِيظ يحمي البهائم من أشعة الشمس، بينمَا الطائرات الحربية كانت مرصوصة على المدارج وسقفها السّماء، لا سقف يحميها من القصف.

سمعتُ زئير طائرات في السّماء، لم أكن أحتاج لرفع بصري كي أعرف أنها طائرات إسرائيلية عائدة من ذبح مطارات الدلتا (أو التأكد من تدميرها)، وللمصادفة مرت الطائرات فوق سيارة لوري مُكدسة برجال في طريقهم للقاهرة للاحتفال بالنصر الزائف (كانت الإذاعة تقول إنّ قواتنا في الطريق إلى تل أبيب)، أخذوا يصفقون ويلوحون إلى الطائرات المُعادية بأيديهم في مشهد سخيف مُثير للحزن والشفقة.

طوال الطريق، كنتُ أقود السيارة بسرعة عالية، وأتمهل عند رؤية الجرارات الزراعية لا احترامًا وتقديرًا لها ولكن لأنها من الممكن أن تنجرف يمينًا أو يسارًا فجأة، كما أنّ الطريق ضيق (حارة لكل اتجاه) وسائقي الجرارات الزراعية عادة لا يُجيدون قيادتها.

فجأة، خرج علينا جرار زراعي من طريق جانبي، كحصان هائج يفر من صاحبه ويعدو مثلنا بسرعة عالية، حاولتُ أن أتفادى هجومه المفاجئ، حذرته عبر بوق السيارة، «أنا قادم، أنا قادم، أنا قادم أيها الأحمق»، تمنيت لو سحقتُ رأسه بطلقات الكلاشينكوف، أمسكتُ مقود السيارة بقوة كي لا تخرج عن السيطرة، ضغطتُ على المكابح، تألمت عجلات السيارة وأخذت تصرخ وتزحف للأمام، حتى أصبح كشّافها على بعد فلس واحد من عجلة الجرار الخلفية اليمنى الضخمة،

أدرتُ المقود بحزم ناحية دقات قلبي السريعة والمزعجة، في ثانية أو أقل توقفتُ على حافة ترعة الإسماعيلية، كانت المياه قريبة جدًّا لدرجة جعلتني أشعر أنّ مُقدمة السيارة مُعلقة في الهواء فوق المياه، لم تكد تهدأ مُحركات قلبي حتى سمعتُ من يصرخ في وجهي طالبًا الابتعاد عن طريقه، أدرتُ رأسي ورفعتها فوجدتُ سيارة لوري قادمة بسرعة، اتسعت أعيننا، وحدقنا فيها برعب شديد.

***

مطار إنشاص (نقطة تجمع)، قرب المغرب.

الوجوه قلقة، الوقت يمضي ببطء طبقًا لنسبية أينشتاين، عرف الجميع ما فعلته في فايد، وتعجب البعض من ذقني، سألني طيار بسخرية: «موضة جديدة أم نذر؟»

رغم أنني لا أحب دس الأذن في الدردشات، وبذلتُ جهدًا في التهرب من استجواب الطيارين، إلّا أنني سمعتُ بطولات كثيرة منها أنّ الطيار نبيل شكري استطاع بمهارة ومعجزة أنّ يُقلع بطائرة في مسافة أقل من كيلو متر من ممر فرعي (مُدمرًا)، دخل مع الطائرات الإسرائيلية في قتال جوي فوق المطار، واستطاع إسقاط طائرة إسرائيلية بالقرب من الزقازيق، فور أن هبط في نفس المسافة الّتي أقلع منها طلب سيارة جيب، قادها إلى مكان سقوط الطائرة وعاد بجزء من حطامها إلى المطار. علمتُ أيضًا أن جميع المطارات المصرية دمرت بذات السيناريو، دمرت الطائرات وهي على الأرض، قلة نجت و أفلتت إلى السّماء، وقاتل طياروها ببسالة، ونالوا الاحترام، أمّا مطار العريش فظل سليمًا، بنقطة ذكاء واحدة يستطيع المرء استنتاج أنّ إسرائيل لم تخدش مطار العريش لأنّها تنوي احتلال المدينة واستخدام مطارها، علمت أيضًا أنّ قاذفات القنابل اليوشن و«تي يو 16»؛ الواحدة بحجم طائرة بوينج ضخمة، دمرت جميعًا،

أصبحت السّماء خالية أمام طيران العدو، أخذ سلاح الجو البلد والحرب صوب مصيره، انتهت الحرب، ولم تستغرق وقتًا طويلًا، خسرنا يا ناصر، خسرنا أيها المُشير، تحدد مصير المنطقة لسنوات قادمة.

صعدت سطح استراحة الملك فاروق (ملك مصر والسودان سابقًا)، كنتُ في الثانية والعشرين من عمري حينما عادت جثة الملك من روما ليلًا، ودفنت سرًا في مدينة الموتى الّتي يُشرف عليها ويحرسها جبل المقطم.

من فوق استراحة الملك، رأيت حمام السباحة، إسطبل الخيول، المطار مدمر بالكامل، قنابل موقوتة لم تستيقظ بعد في كل مكان ويتحاشاها الجميع، الممرات دمرتها؛ قنابل ممر، تهبط بمظلة، الطائرات مُحترقة وما زال بعضها يتصاعد منه الدخان عدا بضع طائرات ظلت سليمة بأعجوبة، سحبها ميكانيكية الطائرات إلى داخل حدائق المانجو، وخبأوها بين الأغصان العالية.

ظهرت طائرة ميراج إسرائيلية تحوم في أرجاء المطار، وتلتقط الصور، وجهت المدفع الرشاش (البندقية الكلاشينكوف) ناحيتها، صرخ الرائد سليمان قدري: «حاسب، هيعمل فيك زي بتاع فايد، وهيعرف مكانا».

***

- غرفة الفئران-

ولدتُ في بناية بحي شبرا على طراز نيو باروك فرنسي وآرت ديكو، لها هيبة وجلالة، سقفها مُرتفع، كل شُرفة مزينة بتمثال دقيق النحت لعروسة البحر، وهي تحمل الشُرفة بكلتا يديها، رأسها وضفائر شعرها حقيقيّة تمامًا، بناية فخمة كالمتاحف أو دور الأوبرا، لها حديقة خلفية رائعة بها أرجوحتين، وفي بداية التسعينيات هجمت البنايات غريبة الطراز والألوان على شوارع شبرا، فأصبحت غريبة في الشارع وتحولت حديقتها الخلفية إلى نقطة تنهشها نو افذ البنايات المُرتفعة ومكانًا لتجمع قمامتها.

خرجتُ إلى الحياة في الثامن والعشرين من مايو/ أيار 1943، بعد عام من إعلان الإذاعة أن الجنرال روميل[1] سيتناول الجاتوه الخامسة مساءً في القاهرة عند جروبي (الجميع في العالم يعرفون جروبي)، كانت مدافع وطائرات الحرب العالمية الثانية في أوّج تألقها. تولّت ولادتي قابلة (داية) ماهرة عجوز لا تخونها يديها، قيل إنها كانت القابلة الخاصة لبعض العائلات الإنجليزية المقيمة في مصر. وحينما كنتُ طفلًا لم أكن مُغرمًا بالحلويات والمصاصات والبطاطا والبيض المسلوق، لكني كنتُ أعشق كلّ شيء يصنعه الخواجة جروبي، بتي سويس، مارون غلاسية، أيس كريم الفانليا والمانجو والفراولة بالصودا، وكانت دراجة أيس كريم جروبي ذات الثلاث عجلات تنتظر أمام باب المدرسة. كانت جدتي لأبي دون توقف تخبرني (على سبيل التخويف) أنّ أبو رجل مسلوخة

---

[1] إرفين روميل؛ قائد عسكري نازي أثناء الحرب العالمية الثانية، خسر أمام الإنجليز معركة العلمين الثانية، شمال مصر.

والغول سيعاقباني على عدم حبي للطعام، وتمردي على المذاكرة والأوامر. وبمناسبة أبو رجل مسلوخة سأحكي لكم حكايته مع جلباب أبي.

كعادة المصريين؛ يرتدي أبي في البيت بيجامة كستور أو جلباب، وكان يُعلق الجلباب على شماعة طويلة من الخشب في زاوية الغرفة، كنتُ أعتقد أنّ أبو رجل مسلوخة يتسلل ليلًا للغرفة ويدس نفسه في الجلباب، لم أكن أغط في نوم عميق بسبب ذلك، وفي ليلة استيقظتُ وقررتُ القضاء عليه.

حدّقتُ فيه، ثم أخذت أعد بدون صوت، «واحد... اثنين... ثلاثة....» هجمتُ عليه كما ينقض الصقر على فريسته، أخذتُ الجلباب في طريقي واصطدمت رأسي بالحائط بقوة. وأصبحت الحادثة طُرفة عائلية يضحك عليها الجميع.

و أنا بالروضة كانت البلد مقسمة إلى مصريين وأجانب، لكل منهما عالمه الخاص ومدارسه الخاصة، لم يكن المصريون أنفسهم قد انقسموا بعد إلى عالمين، الكمبوندات والعشوائيات، كان وقتها يمكن أنّ تجد في مدرسة واحدة وفصل واحد ابن المُدير و ابن الوزير و ابن حارس العقار و ابن بائع الفواكه، لم يكن أحد يشعر بالفقر؛ فالفقراء كانوا محاطين بالفقراء، والأغنياء الذين لا يظهرون ثراءً فاحشًا.

لم أكن ولدًا شريرًا على الإطلاق، في الروضة كانت الأبلة لا تمل من تهديد الفتيان الأشقياء بالحبس في غرفة الفئران، قررتُ التضحية من أجل الجميع، دخلت الغرفة لقتل الفئران (لم أكن ولدًا شريرًا على الإطلاق)، لكن الغرفة لم تكن سوى مخزن للمقاعد الدراسية (التخت) المكسورة وأشياء أخرى لم تعد صالحة.

***

في بداية الستينيات تحديدًا السنة الّتي وصل فيها كيندي إلى رئاسة أمريكا، ونال فيلم الشقة جائزة الأوسكار، غادرت أسرتي شبرا، كحال أسر القاهرة الميسورة الّتي تغادر الأحياء المكتظة بعشوائية الشوارع، والاختلاط الحرام بين طنين أتوبيسات النقل العام وجلجلة أبواق السيارات، يغادرون إلى المعادي أو مصر الجديدة. يسترد المصريون بلدهم ويحلون تدريجيًّا مكان جاليات أجنبية تتلاشى يوما بعد يوم، ويجلسون مكانهم على مقاعد جروبي، وحول طاولة القمار في نادي السيارات بشارع سليمان باشا، ويقذفون كرة الأجانب في ملعب الجولف الرملي في نادي المعادي الرياضي.

كنتُ أقف على أعتاب الثامنة عشر حينما انتقلت العائلة إلى ضاحية مصر الجديدة (هليوبوليس)، مدينة الشمس المحشورة بين العباسية وقصر البارون، البارون إمبان: ثري بلجيكي وصل مصر عام 1904 من أجل مشروع للسكة الحديد، يربط مدينة المنصورة بالمنزلة، الّتي تطل على بحيرة تحمل الاسم ذاته، ورغم أنّ الإنجليز فازوا بالصفقة: فإنّ الرجل الّذي جال أوروبا وأمريكا الجنوبية والهند اتخذ قرارًا لم يكن عجيبًا في ذلك الوقت، سحرته المحروسة فقرر البقاء بها، وفي عام 1906 أسس ضاحية مصر الجديدة، وبنى فندق هليوبوليس بالاس الّذي حوله عبد الناصر إلى قصر الاتحادية، وبني قصرًا لعائلته، استوحى المصمم الفرنسي «ألكساندر مارسيل» قصر البارون من معبد أنكور وات في كمبوديا ومعابد أوريسا الهندوسيّة، وبداخله ساعة أثرية لا مثيل لها إلَا في قصر باكنجهام الملكي في لندن، توضح الوقت بالدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين مع بيان تغيرات أوجه القمر، ويتكون القصر من طابقين وتحمل تماثيل الفيلة الهندية شرفاته.

قصر البارون إمبان-طريق المطار

القصر والمأذنة (البرج)

أما مئذنة القصر فلوحة فنية يحتار المرء في وصف جمالها، ترتفع لأربعة طوابق يدور معها من الداخل سلم حلزوني، على درابزينه نقوش من الصفائح البرونزية مزينة بتماثيل هندية دقيقة النحت، وما زالت تلك التحفة الفنية حتى اليوم في طريق المطار تودع الراحلين وتستقبل القادمين، وبنى البارون كنيسة البازليك في الجهة المقابلة لقصره، ولسبب غامض ربط بينهما بنفق، وحين مات البارون دفن في كنيسة البازليك (كما أوصى)، وما زالت روحه حتى اليوم تنتقل بين الكنيسة وقصره من خلال النفق.

***

كانت ضاحية البارون إمبان صحراء قاحلة على أطراف القاهرة، ويمكن أنّ تجد مقعد لسيارتك بسهولة، لم تكن مياه النيل قد وصلت منازلها بعد، كانت مياه الآبار (مُعين)، يسعدني القول إنّ حيَينا الجديد تحفة هندسية، الشوارع فسيحة وهادئة وخطوط الترام تصل إلى كل مكان، كل عمارة وحديقة وشارع في المكان المناسب، رغم ذلك كان الانتقال شاقًا على نفسي، بيت جديد و أثاث جديد ونمط حياة جديد ولا أصدقاء جدد، ظلت شبرا أرض الذكريات والحكايات والأصدقاء والتفاوت بين الناس، والأنفاس المتقاربة، وجيران تعرف بعضها، وأطفال يتحدثون مع الغرباء دون خوف، شبرا إسطنبول القاهرة، دويلة صغيرة، جمهورية شُبرا. حتى ماجدة كانت تعتقد أنّ وجودنا في مصر الجديدة مؤقت، دائمًا تسأل: «متى سنعود إلى بيتنا؟»، تقصد شبرا.

التحقتُ بكلية الطيران، تقدم إلى الكلية خمسة آلاف نجح منهم ستة وثلاثون في الكشف الطبي، وتم قبولهم جميعًا طيارين.

***

مصر الجديدة، ليلًا.

نعم، لا يجب أنّ تقول كل شيء للناس، لكن لا تستخف بعقولهم.

رغم هجوم الظلام على القاهرة ومصر كلها؛ فإنَّ النَّاطق العسكري حوّل الهزيمة لنصر، وجعل الحياة تجري في مجرى الفرح، رأيتُ الناس في الشوارع يحتفلون بالنصر الزائف، وأتوبيسات نصر العامة والترام ينقلون الناس للاحتفال في وسط القاهرة، إلى متى يستطيعون خداع الناس؟

في البيت، استُقبلتُ بحفاوة بالغة، حتى أنّ ماجدة (أختي) قفزت في الهواء وصرخت وتعلقت برقبتي، تحسست نصف ذقني الغير محلوق وقالت: «ماكنتش فاضي تكمل حلق دقنك النهارده ولا إيه!»

تناولت أمي البندقية الكلاشينكوف من يدي، أسندتها على حائط بجوار باب الشقة. قالت: «طيارات إسرائيلية كتير وقعت النهارده، ها وقعت كام طيارة؟»

طوال حياته، لم أستطع إخفاء شيء عن أبي، لأن له عينان عميقتان يرى بهما ما بداخلي وتكشُفان نواياي، ونظرًا لذلك الاعتقاد، لم أكذب عليه قط، حينما تابع وجهي عرف الكثير لذا توهجت عيناه. تحرك ناحية رف المذياع، كانت إذاعة القاهرة أو إذاعة صوت العرب (لا أتذكر) تصدح بالأكاذيب عن الحرب، لفّ عجلة مستوى الصوت فهدأ صوت الأكاذيب كثيرًا، اقترب مني ووضع يده على كتفي فأعادني إلى العالم، سألني عمّا حدث؟

الأنظار مصوبة عليّ، كلما حاولت التكلم تراجع صوتي إلى الداخل، هربًا مني، هناك أشياء كثيرة، لكنها لا تُقال. أخيرًا أمسكتُ صوتي: «مطاراتنا كلها اتضربت

والطيارات كانت على الأرض، والإسرائيليين دخلوا رفح وزمانهم في العريش دلوقتي». هكذا بدون مُقدمات أو تفاصيل أخجل من ذكرها أمام أبي، لأنني أود دائمًا أنّ ألقى إعجابه.

أغرقتهم الصدمة حتى نهاية رُءوسهم، فزِع وجه أبي، وبدت عيناه قلقتين خلف زجاج نظارته، وضعت أمي يدها على فمها و اتسعت عيناها، حاولت ماجدة أن تتكلم، أعرف أنّ أعصابها يحرقها الشوق لكسر البيضة ونزع الغطاء عما يحدث، طلب منها أبي أن تسكت، مضت في الكلام فأنذرها بأن حدّق فيها بقسوة حتى انصاعت له.

مضت بضع ثوانٍ صامتة، تقدم أبي بهدوء ناحية المذياع وأغلقه في وجه المذيع، (الآن تجاوزتُ السبعين ولم أقابل رجلًا أكثر رصانةً ولا تأنٍ وحبًا لأولاده من أبي)، أثناء ذلك كنت أتبادل مع ماجدة الإشارات.

قالت أمي وهي تهز أصبع يدها بالنفي: «لا لا لا كلامك أكيد غلط يا سمير، ده أم كلثوم كانت بتقول هتغني في تل أبيب، وأحمد سعيد بيقول وقّعنا أكتر من 100 طيارة».

مضت أمي ناحية المطبخ وهي تكرر بصوت رتيب كأنها لا تُصدق: «لا، لا، كلامك غلط يا سمير».

أخيرًا، حلقتُ نصف ذقني في الحمام، غسلتُ رأسي عدة مرات كي أتطهر من الهزيمة، وحينما خرجت كانت أمي قد وضعت طعامًا فوق المنضدة (السُفرة)، وأبي يحرق سيجارة روثمان في الشرفة ويضع يده الثانية فوق سورها الحديدي، الجزء المُحترق من السيجارة بدا في الظلام نارًا حمراءَ متوهجة كالجحيم، كان باب الشُرفة الخشبي مفتوحًا، وزجاجه المعتم مكسورًا في مكانه لاختراق الطائرات الإسرائيلية حاجز الصوت، منع فسيفساء الزجاج من

السقوط شريط لاصق بُني وعريض على هيئة صليب يُقسم الزجاج إلى أربعة أقسام متساوية، كان زجاج جميع النو افذ على هذه الحالة.

من الواضح أنّ طائرات العدو تسلقت أسوار القاهرة العتيقة عدة مرات اليوم وأرهبت الأطفال، لن يُجدي نفعًا حتى لو للقاهرة سورٌ مثل «سور طروادة» الّذي حمى المدينة من الغزو عشر سنوات، فقد اخترع البشر طُرقًا أسرع وأسهل للموت والدمار. لو كانت هناك طائرات حربية في القرون الأولى لانتهت حروب العشر سنوات في دقائق معدودة، و انكمشت كتب التاريخ لأكثر من النصف.

جلست أمي على مقعد مقابلٍ لي وراحت تنظر إليّ، حينما تطلعت إليها كانت مُتحيرة ونظرتها عبء لا أتحمله، خلفها البيانو، لسنوات، لم أر أحدًا يعزف عليه، وكنتُ أنظر إليه على أنَّه مجرد رف لبراويز الصور الأبيض والأسود الأكثر أهمية، داخل كل صورة حكاية، لا تمل أمي من سردها.

دخل أبي بعد أن أباد السيجارة، طلبت أمي منه أنْ يُغلق شيش باب الشرفة للتعتيم، وهو يُغلق الشيش، سألني إنّ كانت أمريكا هي الّتي تحاربنا؟ كان ذهني غائبًا وأشبه بطائر متوتر، لا أتذكر إنّ كنتُ أجبته، ربما بالنفي. سألته إن كان ما يزال يُحب عبد الناصر؟ قال: «يظل الإنسان يحب أبويّه حتى وإن كانت أفعالهما تغضبه». سألت أمي: «يا ترى فين عبد الناصر دلوقتي؟»، دافع أبي: «إنه بالتأكيد في القاهرة»، وأضاف: «أثناء العدوان الثلاثي (حرب السويس) خرج عبد الناصر وقال من الجامع الأزهر: أنا هنا في القاهرة ضد أي غزو سأقاتل معاكم، ولادي موجودين معاكم في القاهرة ماطلعتهمش بره ومش هاطلعهم بره، سنقاتل لآخر نقطة دم، لن نستسلم أبدًا».

أخبرنا أبي أن عبد الناصر قال عن الإنجليز «عدو أكرهه»، وازدرى اليهود «عدو أحتقره»، سألته عن احتمال خروج إسر ائيل من سيناء كما حدث في عام 56؟

تنهد وحدق فيما أمامه وقال: «ممكن، لكن بعد تأديب عبد الناصر، كان يمكن أنّ تكتفي أمريكا بفتح مضائق البحر الأحمر بالقوة، لكنهم يريدون إذلال عبد الناصر»، تذكرت لحظتها تحليقي فوق حاملة الطائرات الأمريكية واستفزازها مرتين.

«انتهى عبد الناصر، انتهى ناصر، كان يستحق الحياة أكثر»، قلتُ في نفسي.

لم أشعر برغبة في الأكل، أنزلتُ الملعقة في الصحن مرتين أو ثلاثة، مضغتُ طويلًا وكأنني أمضغ الأفكار لا اللقمة. نهضت إلى داخل غرفتي وخلفي أمي، قالت لي كلامًا لم أنتبه إليه، وطلبتُ منها أنّ توقظني في السادسة صباحًا.

بدت الغرفة كهفًا مظلمًا، يفوح من أثاثها رائحة الغبار، فلم يدخلها أحدٌ في فترة غيابي الطويل منذ أعلنتُ حالة الطوارئ. سوت أمي السرير، كانت قدمايّ تؤلماني كأنما ارتدي حذاءً ضيقًا طوال اليوم، نزعتُ حذائي العسكري، لم تأمرني أمّي أنّ أخلعه عند الباب كعادتها، كانت مشغولة بشيء أعظم، استلقيتُ على السرير، في الوقت نفسه أخرجت أمي بيجامة من الدولاب، لفت وجهها الحزين إليّ، نهضتُ وأخذتُ البيجامة من يدها، لم تتبادل معي كلمة، وضعت قبلة فوق وجنتي، دفّأت قلبي، كنتُ تائهًا، هل أستحم أمّ أقتل نفسي؟ حملتُ البيجامة وذهبت إلى الحمّام، اغتسلتُ ودعكتُ جسدي جيّدًا بالليفة والصابون.

فرشتُ جسدي النظيف فوق السرير، عرفتُ طريقًا للبكاء على الوطن، ومن شدة الغم اعتقدتُ أنني سأستيقظ في القبر، فكما قال روميل في رسالة إلى زوجته: «الموتى محظوظون؛ انتهى كل شيء بالنسبة إليهم».

خلف زجاج باب الغرفة كانت أمي في الممر، لا تتوقف عن الحركة، تتقدم وتتراجع، سألت نفسي: «هل تركتني وحيدًا في الغرفة حقًا؟ صدقيني يا أمي، لم يكن خطأي، فكيف يُضيع وطنًا شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين!!!»

***

بعد انقطاع لفترة طويلة استأنفت صافرات الإنذار الحقيرة صراخها، انتظرتُ أنّ تدفع أمي باب الغرفة، تحمل ماجدة فوق كتفها والفزع في وجهيهما وكأن الحياة لم يتبق من عمرها إلّا دقائق، تجرني قبل أن توقظني، تهرول بنا على الدرج إلى الملجأ وعينيّ مغمضتين والصواريخ في الخارج تُضيء السّماء ونوافذ المنازل، وكأن ومضة برق ضربتها. كم من الأوقات الجميلة قضيناها في ظلام الملجأ في انتظار القذيفة!! وسط العائلات والجرذان والوشوشات وصراخ الأطفال، ودمى التسلية المصنوعة من القطن المصري، ودردشات ليليّة، ودندنة أغاني أم كلثوم الوطنية، ونكات تنجح في رسم ابتسامة مؤقتة على الوجوه.

ذات ليلة كادت أنْ تكون غارات الطائرات الإنجليزية والفرنسية مُتصلة بذيل بعضها، احتفلنا بعيد ميلاد أيمن (ربما) السَّابع، يسكن في الشقة يسار الطابق الأخير، فيما أتذكر، كسرنا ظلام الملجأ ليلتها بسبع شمعات لدقائق قليلة، ورددنا: «يالا حالا بالا بالا هنوا أبو الفصاد، هيكون عيد ميلاده الليلة أسعد الأعياد»، لكن أيمن كان خائفًا يوم مولده.

وفي ليلة من ليالي القصف، في العتمة كانت جارتنا تذرع الملجأ جيئة وذهابًا، تمر من أمام قدمي الحافيتين، تقترب وتبتعد وهي تُدخن السجائر وتثرثر بكلمات مُبهمة، اقترب منها شاب وسألها، فأخبرته أنّ ابنتها كانت في الشارع ولم تعد، ولم

تعد. من الأشياء الطريفة أنّ جارنا الشيوعي، ذكرها ليلتها بأنّ الله لن يتركها لأن الأطفال أحباب الله.

لم تدخل أمي، وكان عليّ أن أتوقع ذلك، فقد مضى أكثر من عشر سنوات على حرب السويس.

دوت صافرة الأمان.

***

وأنا مُستلقٍ داخل ظلام أحداث الأمس واليوم، اندس جرس الهاتف في السكون وقطع صوت دقات الساعة البندوليّة الضعيف، هكذا الحياة، أصحاب الصوت العالي يسرقون الانتباه، كانت أذني مُنتصبة، توقف طنين الهاتف حينما رفع شخص ما السماعة، سمعتُ أبي يقول بصوت ليس بخير: «أأأه، الحمد لله عرفنا أنه كويس وبخير»، أغلق الخط وتابعت الساعة دقّها بهدوء.

تكرر ذلك لمرات، أعتقد أنّ الجميع قد اتصل عدا خالتي، تقدمت بطلب تركيب تليفون منذ سنوات ولم يصل بيتها حتى الآن.

دفنت رأسي بين وسادتين من القطن المصري، وهكذا انتهي اليوم الذي انطفأت فيه أنوار الوطن مؤقتًا وكف عن الغناء، انتهى أطول يوم في تاريخي.

***

6 يونيو / حزيران 1967.

كلما كبرت الكذبة كانت أضعف أمام الاستمرار.

هناك عصابات إسرائيلية يقيمون عرضًا عسكريًا قبيحًا؛ غير مُنسّق، على بعد خطوات من عمل عبد الناصر في قصر الاتحادية، كأن شارع الميرغني بيتهم، تحول نادي هليوبوليس إلى ثكنة عسكرية ومنطقة إنزال مظليين. رأيتُ مُصابين على نقالات وقتلى على الأرض وجنديًا يرفع بندقيته في الهواء، ويضرب بكعبها سيدة في عمر أمي، بعدما أومأ له قائده برأسه، أمره بالحقارة وشجعه عليها، هل أُخبر عبد الناصر بذلك؟ طوق الإسرائيليّون مصر الجديدة كما تفعل ربطات العنق، احتلوا أحدث أحياء القاهرة وبالمناسبة أقدم من دولتهم بأكثر من أربعين عامًا.

فتحتُ عينيّ بسرعة وفزع، كان نومي مُتقطعًا، وجدتُ أمي واقفة عند رأسي عالقة في متاهة وعلى وشك أن تذرف الدموع، ظلت بجانبي طوال الليل!، حولها زقزقة العصافير على شجرة الفيكس القريبة من النافذة. «هل أبحر عبد الناصر والمُشير في بحر النوم؟»، سألتني نفسي، غرستُ كفيّ في مَرتبة مُلّة السرير ورفعتُ جسدي، «انسِ الأمر، سنتكلم عنهما لاحقًا»، عادت الشمس مرة أخرى خلف النافذة تتزاحم أشعتها على الزجاج المعتم، إنها عادلة بحق تنهض كل صباح لتنير طريق الجميع دون تمييز، المهزوم والمنتصر، الغني والفقير. قربت أمي وجهها إليّ، حبيبتي، قالت بصوت ضعيف: «ما تطمني يا بني، قولي رايح على فين؟»، أخبرتها أني لا أعرف، أنا أنتظر الأوامر كبيدق خشبي، ربما يُؤمر بالتقدم ناحية مكان خطأ على رُقعة الشطرنج، ما ذنب البيدق؟ أهو قراره الشخصي!

والهزيمة قرار، أثناء نومي اتصلت صديقة لأمي وأخبرتها أنَّ ابنها عاد من سيناء وتحدث عن فظائع وهزيمة عظيمة و انسحاب دون نظام، قالت أمي: «الناس بدأت تعرف».

بعد قليل دقت الساعة نصف دقة، «أشكرك»، نفضتُ رأسي بسرعة، إنها لم تخبرني بالوقت، فماذا تعني نصف دقة؟ ماذا يعني إسقاط طائرة إسرائيلية، اثنين، ثلاثة، وسط هذا الاكتساح؟ شُجاع، لكنك خسرت الحرب!! ارتديتُ الأفرول، الكفن، كانت أمي قلقة ومتوترة جدًّا (ليكن الرّبُ في عونها). تركت لأبي البندقية الكلاشينكوف الّتي تسلمتها بالذخيرة في مطارفايد. عند الباب، أخبرته أنّ الوضع صعب والجيش الإسرائيلي قد يدخل القاهرة وحينها سيكون امتلاك سلاح واجبًا، ركّز عليّ، قال: «أنتم منّ يحتاج السلاح»، كان السلاح في أيدينا حينما هُزمنا يا أبي!! ظل ينظر إليّ، أرجوك، لا تفعل، ماذا سأقول للقطة في الشارع؟

نزلت أمي معي إلى الشارع، كل شيء هادئ، شكائر الرمل تتزاحم في الشوارع وتسد مداخل العمارات، مُتماسكة ومُنتصبة في انتظار حرب انتهت قبل أن تبدأ، أعلام الجمهورية العربية المُتحدة تُرفرف في الشُرفات وتحيّي المارة وطائرات العدو، وقفتُ بجوار أمي، تأخر مرور أيّ تاكسي، فالوقت مبكرًا، و أنا أحب حضور الحرب منذ أول طلقة مدفع، كما أن الشارع جانبي وهادئ، مرّكلب ضال، نظر إليّ بعمق، أو هكذا اعتقدتُ، لم أستطع النظر إليه، صدقني بذلتُ كل ما في وسعي. طلبتُ من أمي أن تصعد إلى الشقة، عانقتني بقوة لدقائق وانهمرت دموعها فوق كتفي، أمرتني: «لا تتركني وحيدة، أنت ابني الوحيد، حاول أن تفكر بي قبل أن تعرض حياتك للخطر، عدني ألّا تعرض نفسك للخطر»، قالت ذلك وأخذت تلتقط أنفاسها بمشقة وسمعتُ صوت دموعها، تبرَّمت

لذلك، فأمي لا تشبع من البكاء وتعاملني بحنان واهتمام زائدين عن الحد الّذي أرغب فيه، وذلك يرجع لأنني وحيدها. حينما أتذكر ذلك بعد عشرات السنوات و أنا أودع ابني نادر (الوحيد أيضًا)، لو كنتُ وقتها أعلم أنَّه آخر لقاء بيننا، كنتُ سأعانقه إلى الأبد وأملأ أنفي برائحته، ولن أفلته من حضني للحظة واحدة، كنتُ سأخبأك من الموت يا بُني، أموت عوضًا عنك، لا بل عوضًا عن خصلة من شعرك.

رحل شابًا ولم أكن قد شبعتُ منه بعد، لذا لن أسامح الموت أبدًا.

«في أوقات الحرب اِلْجَئِي إلى السّماء يا أمي، و أنا أيضًا سأفعل»، لم تفهم ما أقصد، أنا مُتأكد حتى الآن. قطعتُ لها وعدًا لن أفي به قط، لطالما كنتُ مُجازفًا، مُغامرًا يُثير الإعجاب. حملتُ حقيبة بداخلها ملابس الطيران ومشيت على قدميّ، حولني الأفرول إلى طاووس يجذب الأنظار وتُغازله العيون، صوت انفجار هائل قريب، استيقظت الطائرات الإسرائيلية وبدأت تُلقي تحية الصباح على سُكان القاهرة، لم تُلق قنابل ولكنه اختراق لحاجز الصوت.

بعد كثير من الخطوات الثقيلة كأنما أحمل الهزيمة داخل حقيبة الظهر، قبل أن أنعطف في الشارع التفتُ خلفي فوجدتُ أمي ما زالت و اقفة مكانها تتابعني ولم تختبئ، لوّحت ليّ بيدها، ذلك كفيل بالشعور بالتعاسة والشفقة على حالها. تابعتُ المشي حتى شارع صلاح سالم، كل من قابلته كان يبتسم لي من بعيد وأحيانًا يصافحني، كنتُ أشعر بخجل شديد، سألتني امرأة ثلاثينية عن اسمي، لأنها تُريد أن تمنحه لطفلها القادم للحياة بعد أيام، لم أخبرها، فلا أودّ أن يتذكرني أحد.

نظرت ناحية جرائد معلقة في واجهة حانوت صغير من الخشب، فوقها أعلام الجمهورية العربية المُتحدة على هيئة سلسلة، وصورة عبد الناصر يرتدي بذلة

كاملة بجوارها صورة لأم كلثوم مُلصقتين داخل الحانوت، وأمام الحانوت دكة من الخشب فوقها جرائد لا تمل من الكذب، وكتب ومجلات نائمة على ظهرها، وعلى الرصيف أمام الحانوت يجلس البائع، الشارع فارغ ولم يكن يُنادي «أهرام أخبار جمهورية».

تجمدتُ للحظة أمام عناوين صحف مروّعة ظهرت جليًا من بعيد: «أسقطنا ......»، وتحتها بالخط العريض: «قواتنا تتوغل داخل إسرائيل».

اقتربتُ أكثر فوجدت جريدة الأخبار قد أسقطت 86 طائرة للعدو على صدر الصفحة الأولى.

نهض البائع ووضع في يدي جريدة الأهرام، وأنا أمزقها من الغيظ توقف البائع عن الحركة ولمعت عيناه من الصدمة، وضعت في يده ثمن الجريدة (خمسة عشر مليمًا)، كدتُ أهزه وأسأله: «هذه الطائرات الإسرائيلية الّتي تتنزه فوق رأسك، ألا تُخبرك بشيء!»، لكن جرت الأحداث وكأنه فيلم قصير صامت من أفلام مستربين.

تحركتُ خطوات بعيدًا عن الحانوت ثم أوقفتُ تاكسي. لم يسألني السائق عن وجهتي قبل أنّ تطأ قدمي السيارة، كعادة سائقي تاكسي القاهرة، ولكنه قال: «أيّ مكان عايز تروحه يابطل هاوديك ليه».

بصوت ضعيف وحزين قلتُ له: «وديني بس عند رئاسة القوات الجوية في روكسي».

دخلت السيارة وجلستُ في المقعد الخلفي بجوار حقيبتي.

***

إذا هزمت الأقوى، سينصاع إليك الجميع دون عناء يُذكر. أثناء الحرب العالمية الثانية اتفق الحلفاء على أنّ «ألمانيا أولًا»، وعلى غرار ذلك يبدو أنَّه اتُفق في إسرائيل على أن «مصر أولًا»، كما أن لذة النصر السريع ستدفع قادتهم ناحية حافة جنون القوة المطلقة لذا ستستمر الحرب.

من خلال منظار جاليلو للمستقبل تنبأت أنّ سلاح الجو السّوري والأردني سيهزمان بأدنى جهد، وحَدَث. ذلك آخر ما توقعته في هذا اليوم، فقد قررت التوقف عن هذه اللعبة السخيفة الّتي تلعب بي منذ الأمس، وكادت أن تدمر خلايا عقلي.

استدار السائق فجأة إليّ، وأخبرني أننا وصلنا، كان التاكسي متوقفًا، تبع ذلك صوت انفجار قوي، اخترقت الطائرات الإسرائيلية حاجز الصوت لبثّ الرّعب في النفوس، حركتُ رأسي في جميع الجهات ولم أجد شيئًا.

وصلتُ رئاسة القوات الجوية قبل الساعة السابعة صباحًا. وفور وصولي أُبلغتُ أنّ هناك سيارات في الخارج سوف تأخذنا إلى مطار القاهرة، وهناك تنتظر طائرة أنتينوف حربية سوف تأخذنا إلى الجزائر، كي نعود بطائرات ميج من هناك.

بعدما خسرنا كل شيء، هاتف عبد الناصر الرئيس الجزائري هواري بومدين، طلب منه إرسال طائرات ميج إلى مصر، تدخل الحرب مُباشرة، لم يلذ بومدين بالفرار، ولم يلتفت إلى غضب أمريكا وفرنسا، تصرف بحماسة مُفرطة، طمأن عبد الناصر وطلب منه إرسال طيارين مصريين لاستلامها لأن سلاح الجو الجزائري حديث عهدٍ وتلقى طياروه جانبًا ضئيلًا من التدريب. (عرفت ذلك بعد سنوات عن طريق شبكة الإنترنت)

***

في مطار القاهرة، الوضع مأساوي، تجمع هائل للطيارين في صالات المطار وفي كل زاوية، وإذا أغلق المرء عينيه وأدار رأسه في أيّ اتجاه بالتأكيد حينما يفتح غطاء عينيه سيجد طيارًا أمامه، وعلى فترات يصل طيارون بسيارات الأجرة أو الأتوبيسات أو بالجو، وما تبقى من سلاح الجو المصري مبعثرًا بعشوائية في أرجاء المطار، طائرة ميج هناك فوق الترامك وسوخوي بجوارها.

على فترات تصعد طائرات حربية سّماء المطار في رحلة للبحث عن عمل، انتظر عودتها لساعات كأم تنتظر ابنها حتى الثانية صباحًا ويغلبها النعاس، أنتظر و أنتظر حتى يمل الأمل من انتظاري.

في صالة المطار، تجنبتُ الكلام مع الطيارين أو الاقتراب منهم والنظر إلى وجوهم، كنتُ أتابع أشعة الشمس البارزة من وراء ألواح النافذة و أتأمل صحراءً تلفُ المطار من جميع الجهات، وجنودًا يمرون عبر نافذتي ويحتشدون للدفاع عن المطار، ألصق جبهتي بالزجاج وتنفجر القشعريرة داخلي و أنا أفكر في هؤلاء الجنود المساكين، الغلابة الذين يسافرون فوق أسطح القطارات، مشهد دخولهم أرض سيناء أمام عيني محشورين في شاحنات عسكرية يمر أمامي وكأنه يقع حالًا، بعضهم يرتدون وجوه صالحة وجلابيب، حضروا من غيطانهم مباشرة دون وعي باستخدام السلاح. الآن، هم بدون غطاء جوي في صحراء لا تُخفي أحدًا، الآن، بالتأكيد يموت هناك مئات الشباب الشجعان بدون صراخ أو استغاثة. أُقيم حديثًا مع طائرات تستعد للإقلاع، كما لو كنا رفاق، أو أحبة، أتذكر أنّي خاطبتُ طائرة رفضت الإقلاع قائلًا: «ع الحلوة والمرة مش كنا متعاهدين».

قطع صوت أموزيس أفكاري والحديث مع الطائرات، استدرتُ إليه، صافحته بفتور، اقترب مني أكثر وعانقني بود كما لو كان فر اقنا قد طال لعشرات

السنوات، قال بصوت حزين: «يا عالم هنشوف بعض تاني ولا لا؟». أثارت كلماته مشاعري ورأيتُ الدموع تلمع في عينيه المتعبتين، لم تكن إطلاقًا دموع الخوف، فأنا أعرف أموزيس جيدًا، إنّها دموع القلق على الوطن، و أيضًا أُومِن أنّ الطيّار مثل باقي البشر يمكن أن يشعر بالتوتر والقلق لكنه لا يخاف أبدًا. عانقت أموزيس مرة أخرى وقلتُ له مازحًا: «أومال مين هيغلبك في الطاولة يا أفندم!!، فابتسم في حُزن».

تعود قصة الطاولة إلى ما قبل ثمانية أشهر في مطار المليز، كانت ليلة هادئة دعاني فيها أموزيس إلى لعب الطاولة معه، انتهز فرصة أنني لا أجيد لعب الطاولة وضع شرطًا قاسيًا، إنّ خسرت فلن أحصل على إجازة، قلت في نفسي: «بالتأكيد سأظل هنا ثلاثة وعشرين يومًا ولن أحصل على إجازة». وهزمته، أتذكر أنّه رمى الطاولة على الأرض، احمرّ وجهه، وزمجر من شدة الغضب. في اليوم التالي دعاني إلى مكتبه وقال وهو يضحك: «إزاي تهزم قائد السرب؟ دأنت المفروض تتحاكم عسكريًّا».

رحل معي إلى الجزائر، أموزيس ميخائيل، ممدوح حشمت، سمير فريد، عز الدين أبو الذهب، فوزي سلامة، فريد حرفوش، سيد صقر، سمير عبد الله و.........

رحلتُ إلى بلاد «الأمير عبد القادر[1]» على غير رغبة مني، دون أنّ تعلم عائلتي وبلا حقائب، بملابس الطيران فقط.

***

[1] شاعر وفيلسوف ذو نزعة صوفية وسياسي جزائري، قاد المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

كان الجزائريون رائعين معنا، استقبلونا بالورود والعناق والترحاب والتهاني بالنصر، كانوا يستمعون إلى أكاذيب إذاعة صوت العرب، أقاموا احتفالًا لنا في قاعة صغيرة، كأنما احتفال عائلي بعيد ميلاد، أوليس العرب عائلة واحدة!، لم أتحمل، ألّا تُخبركم وجوهنا بشيء، أمّ تظنون أنها مُتعبة من النصر!

قدموا إلينا قطعًا ضخمة من الشوكولا، لم أر مثلها في حياتي، أحد الطيارين ابتلع ثلاثة قطع بسرعة، افترسهم حتى أنني اعتقدتُ أنّه لم يطحنهم بأسنانه ويمضغهم، بعد ذلك أصابه وجع شديد في أمعائه. شعرتُ براحة وقتما امتلك أحدنا الشجاعة وأخبرهم بقدر من الحقيقة، ولا مفر من الحقيقة، تسمروا في أماكنهم، ذُهلوا، صُدموا، خصوصًا عبد القاسم، ظللتُ أراقبه، جُن كأنما فقد أطرافه وأولاده جميعًا في حادثة. عبد القاسم، من الذين أصابتهم سحر العروبة ولعنتها في آنٍ واحد، وآمنوا أنّ مصير العرب واحد، كما الله واحد، وعكفوا طوال حياتهم على عمل واحد وحلم واحد، دولة من المُحيط إلى الخليج، من المتحمسين لناصر العرب، الذين يحملونه في عقولهم وجيوبهم، أطلق عليه دفتر ملاحظاتي «حارس بوابة العروبة».

اختفى الحاضرون فجأة كالأشباح، فرغت القاعة، وشيئًا فشيئًا عرف الجميع حقيقتنا كاملة.

***

نصف دستة ميج 21، ستة طائرات، هذا كل ما وجدناه، قضينا الليل في تجهيز الطائرات للطيران، وفي الصباح نَشب جدال كاد أنّ يتمدد إلى شجار على

الطائرات، في النهاية حجزها الطيارون الأقدم، غادروا ومعهم أموزيس، ودعته على الممر، كان مُتحمسًا ويظن أنّ الحرب ما زالت قائمة، حاولتُ إقناعه بأنه مخطئ، لوحت للطائرة بيديّ بحماسة، سألحق بك قريبًا، لا أظن أنّه رآني في بيكرسكوب الطائرة -مرآة تكشف للطيار، ماذا يحدث خلفه؟ بالتأكيد مشغول بالحرب التي تنتظره.

جلسنا فوق الممر، الو اقع يتعدى أحلامنا، ماذا عساني أن أفعل؟ هل نعود بدون طائرات؟ وماذا سوف أعمل؟ مُصمم أزياء، فلاح!!

غنى عبد الغني السيد: «ادتني الثورة خمسة فدادين، خمسة فدادين، والله هنيالي بأرضي يا عين، أنا أرضي الغالية بقت ملكي، بقي خيرها ليَّ ولأولادي، واللي نصفني ربنا يحميه ويخلي ولاده ويخليه، والله هنيالي بأرضي يا عين»، لكن ثورة يوليو لم تعطِ كل مصري طائرة حربية.

أمضينا وقتًا في الحزن والتأمل والتفكير، وليست كل دقائق الحزن واحدة، إنَّها تؤام مُختلفة كل الاختلاف. أخذونا في عربات عسكرية إلى هنجر (مخزن) ضخم للطائرات، في الداخل وجدناها، طائرات الميج، لكنها ميج 17 وليست ميج 21، كل طائرة بجوارها جناحيها مفكوكين عن يمينها ويسارها، تنفسنا الصعداء وشعرنا بشيء من الارتياح ولكن علينا الانتظار أيام حتى تُصبح جميع الطائرات جاهزة للتحليق في السّماء، لأننا لا بُد وأن نعود معًا.

***

اللوم أشد على المهزوم من الهزيمة.

لم أتمن شيئًا في حياتي بقدر عودة ابني للحياة وأنّ يتوقف الجز ائريون عن لومنا على الهزيمة، رؤية اللوم في عيونهم وفي سكوتهم يمزق صدري، وحينما

يسألني أحدهم «لماذا هزمتم؟»، كنتُ أشعر بالإهانة و أنكس جفنيّ ورأسي كالمذنبين، ولا أدري حتى الآن لماذا كنتُ أقول في نفسي مُندهشًا: «هل أنت أعمى؟»!!

في الليلة الثانية أخذونا في أتوبيس لرؤية الجزائر العاصمة، لكننا كنا في حالة حداد ولا مكان للتنزه.

في الجزائر، كان كل شيء قاسيًا وموحشًا، كنا في حالة مُزرية وعلى وجوهنا سحابة الهزيمة والقلق، نتكلم قليلًا وأحيانًا نتقابل دون أنّ ننبس بكلمة واحدة، لم يكن العيش مع الهزيمة سهلًا.

متى كانت آخر مرة هُزمت فيها؟ هل كان الأمرُ سهلًا؟

***

أمام الجزائر وفي أعماق البحر المتوسط تبرك حاملة طائرات أمريكية، جاءت لغرض الانتقام، تهدد المُدن القابعة على شاطئ البحر، سيدفع الجزائريون ثمن مساعدتهم لعبد الناصر، انهمك الجميع في الاستعداد. هناك طائرتان ميج 17 جاهزتان وترقدان في بداية الممر، طُلب مني استلام حالة الطوارئ مع فريد حرفوش والاستعداد. فكرة مواجهة حاملة طائرات أمريكيّة حديثة بطائرتين ميج 17 تُثير السخرية، في أيّ العصور هؤلاء؟ ألّا يعلمون أنّ منظرها مُرعب ولكماتها قاتلة! هل يستخف عاقل بقُدرات ذئب؟

سألتُ عن الأدوات، برج المراقبة، مركز العمليات، المُرشد اللاسلكي (الموجّه)، الخرائط، ولم أتلق جوابًا، هل سأدخل معركة مع دبابة بدون سيف حتى؟ لف أحدهم جسده بعنف وأشار بيده قائلًا في غضب «البحر من هنا»، هكذا ببساطة!!

«لما نديكم الإشارة تطيروا في الاتجاه ده، تضربوا حاملة الطائرات وترجعوا.»

نعود!!، ذلك أكثر من مُثير.

ظل التوتر والترقب والتطلع إلى السّماء، هل سيتكرر ما وَقع في مطار فايد؟

***

حدث ذلك ليلًا، يوم الجمعة التاسع من يونيو/ حزيران، لا يمكنني الآن تذكر ملامحه، لكن كلماته القاسية ما زالت في أذنيّ. قال بلهجة تبدو عربية: «دخل اليهود القاهرة وتنحى عبد الناصر».

رمى الضابط الجزائري الكلمات، توقف و ابتلع ماء فمه، عاد كما كان صامتًا، تبادل نظرات الأسى مع زميله، عندئذٍ، وثبتُ على قدميّ وأخذ قلبي ينبض بعنف وشعرتُ أنّ روحي تنسحب من جسدي، تمنيتُ لو أخطأت فهم كلماته أو أنني بلغتُ حدًا من الثمالة لا يسمح لي بالتمييز. نظرت ناحية «فريد حرفوش»، وجدته كالطفل المُذنب، مُسمّرًا في مكانه، يداه فوق ركبتيه وعيناه معي واللون الأحمر يتوهج في وجهه.

فترة تجمد قصيرة للحياة، دس فيها فريد حرفوش رأسه بين يديه.

«احتُلت القاهرة ولن تعودوا، ستبقون معنا هنا.»

لم تُثر اهتمامي كلماته التالية عن الإقامة الجبرية وأمور لا قيمة لها، كنتُ أنظر إليه ولا أسمعه، كنتُ مشغولًا بالبكاء بداخلي.

نعم، جعل الريّس رأسنا برأس أمريكا و إنجلترا والغرب، لم يعد الإنجليز يتحدثون نيابة عنا، أصبح لنا مخالب صغيرة وصوتٌ وموقع، نصنع من الإبرة للصاروخ، طائرات حلوان النفاثة وسيارات نصر وحتى أحذية في باتا وملابس في صيدناوي وشيكوريل، تتباهى أفخم فنادق أوروبا بأنّ مفروشات غرفها

مصنوعة في المحلة أو حلوان من القطن المصري طويل التيلة. كسرنا احتكار السلاح وأممنا قناة السويس رغمًا عن أنف إنجلترا وفرنسا، بل ونتفنا ريش الديك والإوزة في حرب السويس، «وقلنا هنبني وأدي إحنا بنينا السد العالي». لدينا حلم، القومية العربية، الوحدة العربية، (وحدة ما يغلبها غلّاب، أنا و اقف فوق الأهرام وقدامي بساتين الشام، أشاهدها وأهالي كرام، يقولوا لي قرب يا زين، يقولوا لي مرحى يا زين[1])، لكن الدنيا كلها تكالبت علينا وعلى الريّس، والجواد الّذي تنهش الكلاب ساقيه رويدًا رويدًا لا بُد أنّ يسقط يومًا ما. ساند عبد الناصر حركاتَ التحرر في أفريقيا والعالم وفي النهاية احتُلت بلاده، حدث ما لم تتوقعه أكثر النبوءات والعر افات تشاؤمًا، لا أحد يغيثنا فالعرب مفرِطين في التفكك و انعدام المسئولية، وهناك كمّامة على عيونهم وعقولهم، فشل عبد الناصر في تحريرهم من الرّق، والسوفييت مع مرور الوقت يتضح أنّ يومهم بسنة وبخلاء في توريد السلّاح، ولا تتوقع منهم شيئًا مُفيدًا أثناء الكوارث، مُصابون بالخوف المفرط ممن هم أقوى منهم ولا سبيل لإنقاذهم.

جعلت ثورة يوليو التعليم مجانًا وأصبح الموت أيضًا كذلك. في لحظة واحدة لم يعد هناك عبد الناصر أو أيّ شيء، قُصفت ذاكرتي بالمدفعية الثقيلة، فلا ذكريات بدون أماكن ولعل الأماكن أحرقها المُلاك الجدد، بكت القاهرة إذًا وغابت شمسها، وأصبح أهلها غير آمنين يسمعون قعقعة جنازير الدبابات بدلًا من قعقعة الترام والقطارات. لحظة غريبة جدًّا، فيها اختلطت الذكريات والأشياء والناس والأهل وكأنما طُحنوا معًا، لم أعد قادرًا على التفكير، وبدا المستقبل جسرًا وسط الضباب ينهار تدريجيًا أمام عيني، نفق مُظلم لا نهاية له.

«هل أنت مُتأكد مما تقول؟»

---

[1] أنشودة من تأليف بيرم التونسي وغناء محمد قنديل.

«قرأت الإذاعة المصرية بيانًا من القيادة العامة يقول إنّ اليهود عبروا من الضفة الشرقية للقناة إلى الغربية، لم أخبركم به، بعدها خرج عبد الناصر وأعلن في الإذاعة والتلفزيون أنَّه تنحى.»

«هذا كافٍ»

لم أعقد رباط حذائي، ذهبتُ بعيدًا كي أستنشق الهواء، وبعد قرابة مائة خطوة بطيئة رأيتُ عساكر وضباط جزائريين يبكون، الحسرة كبيرة، دويلة صغيرة بحجم شارع في شبرا زرعها الغرب بيننا منذ أيام، كيف تُهزم دولة كبيرة تقول آثارها أنها قامت منذ آلاف السنوات!!! مَا حدث يشبه قصة سُلحفاة هزمت أرنب في سباق الجري، لأنَّ الأرنب كان واثقًا من الفوز وقرر أنّ يستريح أثناء السباق.

دونتُ في دفترملاحظاتي: «ماذا يتبقى لنا إنّ سُلبت الأوطان حريتها أو قُتلت؟ لا، الأوطان لا تموت، تخسر حربًا فتولد من جديد أفضل صحة وأكثر حيوية ونشاطًا».

لا بُد أنّ الدبابات الإسرائيلية تجوب الآن شوارعًا كنتُ ألعب فيها بالكرة البلاستيك مع أصدقائي، لا بُد أنها أيضًا سحقت واجهة دكان عمي خليل الترزي (خياط)، كان يمزق الكرة بمقصه».

لا ضوء في نهاية الليل، بل المزيد من الظلام، بدأ بعض الطيارون يجهزون لحياتهم الجديدة في الجزائر.

تمنيت أنّ تضربنا حاملة الطائرات الأمريكية وتضع حدًّا لحياتي.

***

«ابق فأنت حبيب الشعب.»

أخيرًا أخبار جيدة، ابتعدت حاملة الطائرات الأمريكية عن شواطئ الجزائر. نجت القاهرة ولم يصل الأعداء إليها قط، نجى أبويّ وأختي، تبين أنّ الجيش الإسرائيلي لم يدخل القاهرة وتوقف بعيدًا عن عتباتها، عند حافة البر الشرقي لقناة السويس، رغم أنّه لم يكن هناك جندي واحد من السويس حتى القاهرة. تنحى عبد الناصر نهائيًّا عن أيّ منصب رسمي وأيّ دور سياسي (كما ورد في خطاب التنحي) وسلم البلاد إلى «زكريا محي الدين».

اهتزت مصر كلها، ما زلنا في حاجة إلى ناصر، خرجت الجماهير إلى الشوارع غاضبة، تحمل صور ناصر، تهتف، «ناصر، ناصر»، «ارفض يا زكريا، عبد الناصر مِيّة المايه»، «هنحارب، هنحارب»، «نموت نموت وتحيا مصر»، «يا جمال يا مثال الوطنية»، لكن بالتأكيد لم يكن بينهم أحد من الإقطاعيين الذين يؤمنون بحق فرد واحد في امتلاك ربع أراضي القليوبية أو أحد من عائلة الفقي أو أهالي قرية كمشيش، هؤلاء لن يتظاهروا من أجل عبد الناصر.

منحت الجماهير عبد الناصر حياة ثانية، قالت الإذاعة «عبد الناصر لن يقاوم صوت الجماهير» وقالت الصُحف. «الشعب يقول لا»، «أمام ضغط شعبي غلّاب قرر عبد الناصر تأجيل قراره بالتنحي» (لكن الرجل الّذي بدا مُسنًا ومكسورًا بعد الهزيمة ظل يؤجل قرار التخلي والتنحي حتى مات).

يمكننا أنّ نحيا، نبكي من شدة الفرح، نحلم، عاد عبد الناصر، شعرنا بالحماسة وطلبنا من الجزائريين استعجال تجهيز الطائرات.

***

لم أخلع ملابسي وجوربيّ منذ أيام، ننام ونستيقظ بملابسنا.

كان التراب يتجمع تحت أظافري وثيابي مُتسخة جدًّا وجسدي ثقيل ورائحة جوربيّ كريهة، نظرًا لأنهما يشعان رائحة عطنة، لم أنزعهما من قدمي وهذا ما زاد الأمر سوءًا. كنتُ أشعر أنّ ملابسي تُقيدني، فكلما جلستُ أو وقفت أو تحركتُ انكمشت بصعوبة.

أصبحت الطائرات جاهزة، غسلتُ ملابسي وتركتها لتجف، وقبل أنّ نصعد الطائرات ودعنا الجزائريون وداعًا حارًا، أوصاني عبد القاسم عند سُلّم الطائرة: «لا تتركوا أرض العرب لليهود».

أثناء العودة، توقفنا في طرابلس للتزود بالوقود، وحينما وصلنا بني غازي كان الظلام قد خيم، انتظرنا حتى الصباح لأنَّ الميج 17 لا تطير بالليل، قدموا لنا كمبوت محشو بالمانجو، مذاقه لذيذ جدًّا، طلبنا طبقًا آخر، هذا أوّل لقاء بيننا، ذكرني ذلك بتفاح غزة، فحينما كنتُ بمطار المليز، ذهبتُ بسيارة لوري إلى غزة لإحضار موتور ماكينة خياطة سنجر منزلية لطيار مواصلات وبعض الأشياء للطيارين، وقتها كان هناك حصار اقتصادي على مصر، الدجاج والزيت والسكر وصابون نابلسي شاهين (نابلسي فاروق قبل ثورة يوليو) وكل شيء توزعه الجمعيات في حصص، لكل عائلة دجاجة واحدة في الأسبوع، وحتى إطارات السيارات، لكل فرد يمتلك سيارة إطارين من النوع نسر في العام.

هناك في سوق غزة، رأيتُ شيئًا عجيبًا اسمه التفاح، فلم أر مثله في مصر، اشتريتُ ثلاثة كيلوجرامات بجنيه، والتهمتهم مع السائق في الطريق ولم يترك أيّ منا شظية واحدة.

في الصباح طرنا من بنغازي إلى مرسى مطروح ومنها إلى مطار القاهرة الدولي، تحول المطار إلى ثكنة عسكرية، استعدادًا لقصف إسرائيلي أو غزو، مدفعية وجنود تظهر بنادقهم من وسط شكائر الرمل وخنادق وحفر برميلية. طلبوا منا العودة إلى بيوتنا والتجمع صباح الغد في رئاسة القوات الجوية.

زهاء أربعين طائرة، مجموع ما أمدتنا به الجزائر من طائرات ميج 17.

***

تذكرتُ ذلك شيئًا فشيئًا، وساعدني دفتر ملاحظاتي وأختي ماجدة في تذكر بعض التفاصيل.

رغم شعوري بالإرهاق الشديد، فإنني انطلقتُ بسيارتي الفولكس بصحبة ماجدة إلى وسط القاهرة، حيث هناك غابة من مباني فخمة تعود إلى عصر الخديوي إسماعيل، الهدف «الأمريكيين» أسفل عمارة اليونيون دي باري بشارع 26 يوليو، أو عمارة الأمريكيين كما يسمّيها الناس.

عمارة الأمريكيين، واجهة جانبية (صورة حديثة)

كان جو الحرب والنكسة يُغلّفان الأشياء والأماكن، أينما ذهبت عيناي، أعلام مُثبتة على أعمدة الإنارة المُطفأة، الجدران مليئة بالكتابات الحماسية عن الحرب، «يد الله معنا»، «سحقًا للصهيونية»، «سنقاتل..... سنقاتل». الشوارع فارغة وشبه مُظلمة وفوانيس السيارة مدهونة للتعتيم، وأزيز مُحركها مُرتفع، والإذاعة تزيد من حرارة الجو وحماستي بـ «مصر الّتي في خاطري وفي دمي[1]»، كنتُ أقود السيارة بسرعة، أعشق السُرعات العالية، فأنا قائد طائرات في الأصل. أخبرتني ماجدة بما كان من أمر التنحي، وقالت إنها سعيدة لأنني ما زلتُ حيًّا، وهذا بفضل صلوات أمي من أجلي، أكملت بجدية: «لم أعد أثق في أحد سوى الله»، أخبرتني أنّها كتبت لي خطابًا لكنها لم تكن تعرف لي عنوانًا، تحدثنا عن الجزائر وأخبرتها أنها مدينة جميلة تُشبه مدن أوروبا. حاولت الهروب من دوامة الحديث عن الحرب، طلبتُ منها مساعدتي في اختيار لون جديد لسيارتي الفولكس، فلونها عالق بحالة تغيير لا نهائية تتكلف الواحدة أربعين جنيها، اقترحت اللون السماوي، وكان ذلك التغيير الأخير، ظلت السيارة باللون السماوي حتى تخلصتُ منها في السنة الثانية من السبعينيات.

كنتُ أجلس مع ماجدة في الأمريكيين نتناول أيس كريم تروا بيتي كوشون، القاعة فسيحة، نصف مُظلمة وسقفها مُرتفع، النوافذ مطلية باللون الأزرق للتعتيم، وهناك في الزاوية هالة ضوئية حول تمثال من الرخام الأبيض لفتاة بين عاتقها وخصرها وشاح، أحدهم كتب عليه بعفوية «تسقط إسرائيل»، وهناك فتاة تعزف على البيانو مقطوعة حزينة جدًّا (على غير العادة)، على رأسها تاج، ومثل جميع النساء (وقتها) تضع مساحيق التجميل بغير بذخ. أيقظتني أصابع ماجدة من غفوة دون قصد وبتأثير التعب، رفعتُ رأسي. هناك

---

[1] أغنية لأم كلثوم.

سُفرجي نوبي يرتدي بذلة حمراء مزركشة، ينادي اسمي دون أيّ ألقاب ودون أنّ يعرفني، رفعتُ له يدي، فاقترب وأخبرني أنّ هناك مكالمة هاتفيّة لي.

صوت أمي، متلهفة عليّ، طلبت مني عدم التأخر والحذر لأن الناس لو عرفوا أنني طيار حربي سيدخلون معي في مناوشات، فهناك إشاعة تقول إنَّ الطيارين سهروا في حفلة بمطار انشاص حتى الصباح، وحينما قامت الحرب كانوا نائمين، لذا فهم يتحملون نتيجة الحرب، أوّل مرّة أسمع هذا الكلام.

شربنا قهوة تركية من البن البرازيلي أمام سينما مترو، كانت رائحة القهوة المحمّصة تملأ الهواء، التقيتُ بطيار دفعتي، فقد اعتدنا زيارة البن البرازيلي في الإجازات، أخبرني أنّه كان مع الطيارين الذين ذهبوا إلى العراق. عدتُ إلى البيت وكنتُ على وشك الإغماء من التعب، وأرغب في النوم بشدة.

***

- لا تخبروا والدتي -

بدأت أنوار المسرح تُضاء تباعًا. سارع السوفييت إلى تقديم الإسعافات الأوليّة لسلاح الجّو المصري، كانت طائرات النقل العملاقة، انتينوف 12، تحط في مطار غرب وتفرغ حمولتها، طائرة ميج 21 أو ميج 17، أثناء ذلك تبني شركة المقاولون العرب حظائر أو مخابئ للطائرات الجديدة (دُشم)، تحمي الطائرة مِن القصف، فيما بعد قامت الشركة ببناء دُشم في الأردن والعراق والإمارات ودول عربية أخرى، تم تمويه الطائرات لتأخير رؤيتها ونُصبت بالونات حول المطار كالشباك، تُجبر الطائرات المعادية على الارتفاع كي تظهر على شاشات الرادار وتصبح صيدًا سهلًا للصواريخ (تستطيع صواريخ سام تدمير الطائرات على ارتفاع كيلومترين أو أكثر من سطح الأرض بكفاءة عالية، وتقل كفاءتها كلما كان الهدف أقل من هذا الارتفاع)، الآن، لم يعد بإمكان العدو تدمير طائراتنا وهي على الأرض، ذهب ذلك الزمن بلا رجعة (وإلى الأبد).

أهدت النكسة رأس المُشير عامر إلى عبد الناصر، ألغى حكمه على الجيش وجرده من منصبه ونفوذه، استلم الفريق محمد فوزي وزارة الحربية والشهيد عبد المنعم رياض رئاسة الأركان، و أقسم الأخير اليمين في بيت عبد الناصر، وهو رجل يتمتع بسمعة جيدة، يُقال إنَّه شارك في الحرب العالمية الثانية، وكان قائدًا الجبهة الأردنية وقت النكسة وصاحب فكرة تدمير الطيران الأردني والسّوري للمطارات الإسرائيلية أثناء هجوم الطائرات الإسرائيلية على مصر.

حدثت مجزرة في قيادات سلاح الجو، استُدعي المُرعب مدكور أبو العز من أسوان على عجل واستلم رئاسة القوات الجوية بدلًا عن الفريق محمد صدقي الّذي تم التضحية به وأودع السجن مع قيادات الصف الأول إرضاء للغاضبين من الشعب، كنتُ أطلب من الله أنّ يمنحهم القوة لتحمل تجربة التشويه وتلويث السُمعة والسجن والمحاكمات (عُرفت بمحاكمات الطيران)، سيقولون لك إنَّهم مذنبون، لكن الجميع مُذنبون، عبد الناصر أيضًا، أما قيادات الصف الثاني فقد نجوا ولم يمسسهم سوء.

الأهم، انضمت المؤهلات العليا للجيش، قبل النكسة: كان الجيش لا يعترف بوجودهم ولا يضمهم إليه، ينظرون إلى شهاداتهم على أنها مُجرد ورق، أو يخشون منها، سأدع ذلك لعقلك.

دعمت أم كلثوم المجهود الحربي ماليًّا وغنائيًّا، سجلت نداءات إذاعية رقيقة تدعو فيها للتبرع، وأعلنت عن إقامة حفلات في جميع المحافظات المصرية، تذهب عائداتها للجيش.

رغم كل هذا الجهد المُتأخر بقيت الحقيقة المُرة، الدبابات الإسرائيلية باتت على حافة قناة السويس، والعسكريين السوفييت دخلوا مصر من أوسع أبوابها، أصبحوا في كل مكان، كل مطار، كل سرية، كل كتيبة، ودسوا أنوفهم بشكل مريب في التفاصيل، تحالف عبد الناصر مع السوفييت وتخلى عن مبدأه حينما قال: «كيف تتحالف دولة كبرى مع دولة صغرى!! لن يكون حلف بل تبعية».

***

فور العودة من الجزائر التحقتُ بفرقة في مطار غرب القاهرة للتدريب على طائرة من طراز (MIG-21 FL)، يوجد بها جهاز تنشين بدائي وخزّان وقود إضافي يتيح لها البقاء في الجوّ فترة أطول، لكنّها بدون مدفع.

طوال الفرقة؛ كانت الرحلة من المنزل إلى مطار غرب يومية واعتيادية، أستيقظ قبل أول ضوء بأكثر من ساعتين، أرتدي أفرولي و أنتظر أتوبيس صغير (ميكروباص) في الشارع، يشق الأتوبيس المرسيدس الأزرق طريق صلاح سالم، كان وقتها مُظلمًا ولم تكن السيارات فوق بعضها مثل الآن، يصل الأتوبيس مصر القديمة ومنها إلى الجيزة ثم شارع الهرم، على جانبي الشارع يتمايل رجال ونساء مخمورين على أبواب البارات والكباريهات وأمام سياراتهم المرصوصة في الشارع، ويمكن أن ترى شجارًا على فتاة، وفي أوقات كثيرة وددتُ لو أنزل من الأتوبيس وأسأل أحدهم: «ألا تعلم أننا في حرب!!!»، رغم أنني وقتها لم أكن متدينًا إلّا أنني كنتُ أشعر بالاختناق حتّى أصل مطار غرب (على طريق الإسكندرية الصحراوي) قبل أول ضوء بساعة.

أرى هؤلاء المخمورين كلّ يوم، حتى أنني حفظت وجوه البعض وسياراتهم ومواعيد خروجهم من الكباريهات، والّذي يُصادف مروري في شارع الهرم. وذات مرة، كانت السّماء ما زالت مُظلمة، سمعتُ صوتًا مُزعجًا قادم من ناحية ذراعي الأيمن، نظرتُ من زجاج النافذة فوجدتُ شابًا مخمورًا أمام نافذتي مباشرة، يرجم الأتوبيس بالحجارة. في البداية ألقيتُ ما حدث على عاتق الخمر، وفي مُنتصف النهار تقريبًا خطرت لي فكرة أنه علم أننا طيارين والناس يحمّلون الطيارين نتيجة النكسة. إذا بعضهم يعلم أننا خسرنا حربًا، ألهذا يشربون الخمر؟ إننا كما يقولون «شعب يسكر حينما يحزن أو يفرح».

***

بعد نهاية الفرقة، تم توزيعنا على الأسراب، وكان من نصيبي السرب 16، اللواء الجّوي ٢٣٨ جميع الأجواء. في الليلة الّتي سبقت صباح الرابع عشر من يوليو/ تموز جمعنا قائد السرب أسفل ضوء غرفة المُحاضرات الخافت، ما زال صوته الجهوريَرنُّ في أذني، قال ما بداخلنا، «السّماء هي الطريق الوحيد الّذي يُمكن أن يأتي منه النصر»، (لا أدري إنّ كان يقصد بكلمة السّماء، الله أم الطائرات؟)، «يجب أنّ نخبر العالم أنّ سلاح الجّو المصري ما زال حيًّا يُرزق»، وهكذا، رش الحماسة فوق رُءوسنا.

في الصباح، تدفقت طائرات سلاح الجّو المصري من جميع المطارات، ناحية سيناء، مُظاهرة جوية أروع ما يكون ولا يمكن لأحد الوقوف في وجهها، بسرعة دخلت طائرات العدو المخابئ، لم يكن هناك أيّ شيء عليه نجمة داود في السّماء، كانت التعليمات؛ اذا رأيت أيّ شيء إسرائيلي يتحرك شرق قناة السويس فوجه أسلحتك نحوه حتى يتم تدميره تمامًا، الهدف ما تراه مُناسبًا، في ذلك اليوم قمتُ بالإغارة على مواقع العدو ثلاث مرات، وحماية طائرات الميج 17، قصفنا جزءًا من بلدنا بقسوة، وصفتُ ذلك في دفتر ملاحظاتي بمن يُفجر بيته لأن وغدًا احتله.

في صباح اليوم التالي كررنا الشيء ذاته.

فيما بعد أخبرني صول في الجيش كان عالقًا في سيناء وعاد، أن القطار على مدى اليومين كان يصل العريش مملوءًا بالقتلى والجرحى الإسرائيليين.

إنها مُجرد بداية، 258 رصاصة في جسد العدو (258 طلعة قتال للقوات الجّوية في يومين).

استأنفت أم كلثوم غناءها العاطفي في نهاية أغسطس/آب، غنت في الإسكندرية «أنت عمري»، وسلمها المحافظ مفاتيح المدينة، قال صديق حضر حفلة الإسكندرية: «مصر كلها كئيبة عدا حفلات أم كلثوم»، (أعتقد أنها غنت بعد النكسة مباشرة في نادي طنطا، وتم تسجيل الحفل بالألوان).

***

كانت الساعة السابعة وقليل حينما أيقظتُ ضاحية مصر الجديدة كاملة، بل و أيقظت الريّس نفسه. تبدأ الحكاية حينما طُلب مني نقل طائرة ميج 21 من مطار غرب القاهرة إلى مطار ألماظة في شرق القاهرة (مُقابل يوم إجازة).

دعوني لا أفكر أبدًا في قرار اتخذته و أنا أدور في سّماء حي مصر الجديدة. الناس نائمون والهدوء بسط سيطرته على الشوارع، أشكر الله أنّ الطائرة لم تكن مُسلحة بصواريخ.

فوق حديقة الميريلاند، حلقتُ بالطائرة بالقرب من سطح الأرض بسرعة جنونية كأنني أشق الهواء لنصفين، الفزع أصاب الجميع، ورأيت الناس في الشوارع يهرولون في كل اتجاه، وفجأة ظهر كثيرون في الشرفات ورُءوس تطل من النو افذ. فوق شارع الميرغني، صعدت بالطائرة إلى نحو أربعة كيلومترات فوق سطح الأرض، عن قصد، توجهتُ بمقدمة الطائرة ناحية الأرض، أخذت أدفع الثروتل -يد السُرعة- إلى الأمام، ظلت السرعة تزداد حتى تجاوزت سرعة الصوت، اخترقت الطائرة جدار الصوت، دوي هائل اتجه مع الطائرة ناحية الأرض (حينما تخترق الطائرة جدار الصوت وهي تطير أفقيًا، يسمع أهل الأرض صوت دوي في السّماء، تزيد قوة الدوي كلما اتجهت الطائرة ناحية الأرض، حينها يسقط الدوي على أهل الأرض)، بالتأكيد سمع سُكان مصر الجديدة صوت انفجار هائل، كما أن هناك زجاج تحطم، (كانت سعادتي بالغة حينما

قالت لي خالتي إنّ زوجها استيقظ مفزوعًا ونزل تحت السرير). بالقرب من منزل الرئيس عبد الناصر اخترقتُ جدار الصوت مرة ثانية، ضحكت وقلتُ في نفسي: «هذا يكفي».

توجهتُ ناحية مطار ألماظة، و أنا في سّماء المطار رأيت أفراد الشرطة العسكرية في انتظاري على الممر. فور أن وطأت أقدام الطائرة الممر تجمعوا حولها، رفعت غطاء القمرة وأخبرتهم أنني في إجازة، رد أحدهم ببرود: «الإجازة اتلغت خلاص يا أفندم، ده فيه سبعة بلغوا عن اللي أنت عملته أقل واحد فيهم لواء، وكمان فيه اتصال من رئاسة الجمهورية».

ابتسمت ونزلت من الطائرة و انتظرت السيارة الجيب، رأيتُ الطائرة تُسحب إلى داخل الدشمة (مَخبأ سقفه مُسلح)، بينما تمر أمام عيني لمحتُ آخر رقم في تسلسلها، الرقم ثلاثة!!!!

انطلقت السيارة عائدة بي إلى مطار غرب القاهرة، في الطريق حاولت الإمساك بتبرير لما فعلته.

استقبلني عند بو ابة المطار قائد اللواء، سمير عبد الرازق، ضخم الجثة بحجم مروحية صغيرة، منتفخ العضلات، مخيف الطلعة كالمصارعين (وكان كذلك)، قوي البدن عريض المنكبين، الرجل الطويل قد يصل عند ذقنه، نزلتُ من السيارة وذهبتُ إليه، الغضب على وجهه، لكني لم أخشاه فقد كنا نقرع باب مكتبه عند المشاكل، لكزني في صدري بأصبعه العملاق (هكذا يُعبر عن غضبه)، كأنما سحب روحي، قال بصوته الضخم: «إيه يا سمير اللي أنت عملته ده؟»

و أنا أصارع الألم قلت: «والله يا أفندم ضربت في دماغي أعمل كده».

ابتسم وقال: «بص، أنت هتروح في ستين داهية».

«طيب، يا أفندم أعمل إيه؟»

«أنا هاديك جزا خفيف، علشان ماتخدش جزا تقيل».

وضع يده على كتفي وسار بي، وقال: «قولي بئا أنت عملت إيه بالظبط؟»، سردتُ له ما حدث، كان مكتبه بعيدًا، لكن إذا فرد رجله العملاقة مرات قليلة فسيكون هناك!، أخبرته ذات مرة بأنه هارب من بروبدنغناغ[1].

في مكتبه، أحضر ورقة عقوبة وكتب فيها «سبعة أيام حجز في المعسكر»، وقعتُ عليها بنفس راضية. في مُنتصف الحديث طُرق الباب، دخل جندي وأدى بيده التحية العسكرية في الهواء، قال إنّ هناك لجنة بالخارج من رئاسة القوات الجّوية حضرت لمحاكمتي.

«دخلهم وروح هات كازوزة، قال قائد اللواء».

استدار الجندي نصف استدارة نظامية وخرج.

حيّاهم قائد اللّواء باحترام، وبعدما جلسوا قال لهم: «أنا أديته جزا خلاص».

أتذكر جيدًا أنّ رأس رئيس اللجنة كانت تُشبه ثمرة قرع فارغة وله شارب ضخم، فزع ونهض و اقفًا حتى اعتقدتُ أنّ شاربه سيقع (لا أعلم سببًا لذلك الاعتقاد)، ثار كما لو غرست شظية بجسده، ولوح بيديه في الهواء. وبعد أنّ هدأ كثيرًا وأشعل سيجارة، نفخ الدخان وأشار بأصبع يده ناحيتي قائلًا: «أنت شكلك شقي وهيجيلك يوم».

***

---

[1] أرض العمالقة في رحلات غوليفر.

داخل أعماق صحراء وادي النطرون، تحديدًا المنطقة المحصورة بين الأديرة، كانت النجوم في السّماء تلمع بشدّة ثاقبة الظلام، وعلى الأرض هناك تبة فوقها دائرة على حوافها كشّافات وفي وسطها كشّاف، ومنصة يجلس عليها وزير الحربية وقائد القوات الجّوية وقادة ألوية السوخوي والميج 21 والميج 17 والقاذفات، يراقبون الدّائرة المُضيئة أعلى التبة. وفي مكان ليس بالبعيد تتجهز لغارة مهمّة طائرات تيوب واليوشن 28 وسوخوي وميج 17 وميج 21، ستُقلع على التوالي بفارق زمني صغيربقيادة طيارين مُحترفين تم اختيارهم بعناية (نظرًا لمتابعة وزيرالحربيّة للغارة)، ومنهم أنا رغم حداثة سني.

قواعد اللّعبة بسيطة. تنطلق كل طائرة ناحية التبة وحينما تصل تُطلق على الهدف المضيء قنبلة من الإسمنت. إنّها غارة وهمية، تدريبات مُعتادة وزيارة إلى تبة ضرب النارالمفروض أن تتم دوريًا، لكن قبل النكسة لم يكن يحدث ذلك.

وصلت أولًا طائرة اليوشن 28 وقصفت الهدف، سقطت القنبلة بعيدًا وتركت الهدف وشأنه، إنّه أمرمُقلق فهذه الطّائرة قاذفة وبداخلها ملّاح وظيفته توجيه القنبلة، من شدة الغضب رمى وزير الحربية السيجارة وغرسها بقدمه في الرمال. بعدها وصلت السوخوي، قدمت أفضل ما عندها وأصابت حافّة الهدف، لكن أنواره ما زالت تتوهج في الظلام.

قبل أن أقلع بطائرة ميج 21 علمت أنّ القاذفة اليوشن لم تُصب الهدف، كان ذلك الخبرمُحبطًا، أقلعت من مطارغرب القاهرة ناحية التبة، حينما وصلتُ كان الظلام حالكًا و أنوار الهدف تتوهج، هبطت في مسار دائري ناحية التبة،

و أنا أهبط وضعتُ الدوت في مُنتصف الهدف المضيء وأطلقت القنبلة عليه، إنّه شيء صعب جدًّا، تخيل أنك في طائرة تتحرك بسرعة عالية وتحاول اقتناص هدف على الأرض.

فتح الهدف ذراعيه، أخذت القنبلة الهدف في طريقها، دهسته وأطفأت جميع أنواره، عم ظلام دامس ومرت لحظات صمت.

استدار وزير الحربية ناحية قائد لواء الميج 21 والسيجارة في يده، سأله: «مين ده؟»

«يا أفندم ده طيار عندنا اسمه، سمير عزيز ميخائيل.»

كنتُ الطّيار الوحيد الذي أصاب الهدف ولذا حصلتُ على قلم باركر.

«المرة الجاية في تل أبيب»، هتف واحد من جمهور أم كلثوم في حفلة الخميس، الأول من يونيو/ حزيران 1967، وما زال صوته في التسجيل حتى اليوم.

***

- الميج فوق أمواج البحر-

الطّيار الّذي لا يستطيع الانعطاف بين جبال البحر الأحمر وإطعام طيور الكناري، الأفضل أن يعمل في البلدية.

في شتاء السنة الّتي غنت فيها أم كلثوم «هذه ليلتي» حط السرب 16 في مطار الغردقة، السّماء صافية، الجّو معتدل، ودرجة الحرارة ما بين السابعة والعشرين والثلاثين. المطار عبارة عن ممر واحد وبرج للمراقبة ويستطيع الواقف في المطار رؤية حدوده. أقلعتُ بالطّائرة لاستطلاع المكان واكتشاف معالمه، اكتشفت أنّ الغردقة مدينة صغيرة وأظن أنَّها قديمًا لم تكن سوى قرية صغيرة للصيادين، لكن الوقت لم يكن كافيًا للبحث في تاريخ المدينة والتحقق من صحة هذه الفرضية، يسكنها بضعة آلاف ومحاطة بسلسلة جبال البحر الأحمر.

أعترف، وقعتُ في غرامه حينما رأيته من السّماء لأول مرة، نعم، جرت العادة أنّ الأشياء تبدو من السّماء أجمل، لكن حينما تقابلنا فيما بعد، أصبحت كلمة جميل غيركافية، مبنى مذهل يقع خارج المدينة، وحيدًا، يتجاهل العالم وينقطع عنه، يتألق وسط الصحراء، مُصمم على هيئة دائرة فارغة من المُنتصف، في مقابله البحروعلى إحدى جانبيه حمام سباحة وخلفه جبال من الرمال.

حينما هبطتُ دونت كل شيء في دفترملاحظاتي، سألت عن ذلك المبنى فأخبروني أنه «شيراتون الغردقة»، وربما يكون مُغلقًا لعدم وجود سُيّاح.

لم يكن مُغلقًا، وطوال إقامتي في الغردقة قضيتُ فيه ليالٍ رائعة أثناء أوقات الرّاحة، كان المتعة الوحيدة في المكان، وسبب لي مشاكل.

شيراتون الغردقة (صورتان حديثتان)

***

كُنتُ أتوقع الأسوأ، لكني لم أتوقع أبدًا أنّ أشرب مياه تتكون من ذرتين هيدروجين وذرة أكسجين وعشر ذرات جاز. توقفتُ فجأة ولفظتُ المياه قبل أنّ تنزلق داخل بطني. خاطبتُ العسكري: «أنت يا ابني جايب المايه دي من خزان الوقود بتاع الطيارة!!!»

«لا يا أفندم، ده فنطاس المايه اللي بيجي من عمّان، بيروح محمل جاز ويرجع محمل مايه.»

على طريقة «قليل من الحياة، كثير من الموت» دونتُ في ملاحظاتي على الهامش «قليل من المياه، كثير من الجاز»، وبعد أسابيع قليلة عدتُ إلى الصفحة وأضفتُ بجوار كلمة الجاز، (وربما حيوانات ميتة)، وذلك بعد أنّ اكتشف أحد العساكر معزة ميتة داخل الفنطاس، تذكرت أنني كنتُ أجد شعرًا غريبًا في المياه، على أي حال، كان ذلك الاكتشاف متأخرًا فقد ابتلعت بطوننا أكثر من نصف الفنطاس وشظايا من المعزة، الغريب أنّ عجلة الحياة والأرض أكملا دورانهما وكأن شيئًا لم يقع.

بعد وجبة المعزة اعتدنا تفتيش جوف الفنطاس مباشرة حينما يصل من عمّان، والبعض يُفتشه في كل مرة يهم بالشرب.

الحياة العادية في مطار الغردقة صعبة المنال والاستحمام بمواعيد لقلة المياه (كلمة الاستحمام هنا تعني أنّ يرش المرء الماء على جسده مرة واحدة)، لكن الليل في المطار مختلف، الهواء ربما ينتزع رجل ضعيف ويأخذه في طريقه، الجّو بارد وكأنني مدفون بين ثلوج القطب الشّمالي، الظلام الحالك رائع جدًّا وبسبب التعتيم لا يوجد نقطة ضوء واحدة، السكون يطبق على كل شيء، النجوم بارزة وتلمع بشدّة في السّماء وتتوهج كالنار، وفي الأيام القمرية أستطيع القول إنّ

ضوء القمر يكون كافيًا لرؤية الكثير من الأشياء. فكرتُ في إحياء طموحاتي الفنية والموسيقية على أنغام هذا الهدوء.

أذكر أنه ذات مرة، كنتُ أجلس مع زوجتي في مطعم فاخريطل على نيل القاهرة من سطح فندق النيل هيلتون نحتفل بعيد زواجنا الثالث (مُنتصف يوليو/تموز1976)، قلتُ لها: «المكان ده بيفكرني بحاجة مهمة». تدحرجت على شفتيها ابتسامة أنارت وجهها وركعت أمام حلاوتها الدنيا، كادت أنّ ترقص طربًا وركزت نظرها علي وسألتني: «بيفكرك بإيه؟»

«مطار الغردقة بالليل.»

أسفل الطاولة، سقط كعب حذائها العالي فوق قدمي مثل قنبلة ممر، كتمتُ ما تبقى من صرختي، لكنّ للأسف انفلتت مقدمتها وجذبت انتباه البعض، أمّا هي فعضت شفتها وقالت: «وماله يا حبيبي».

لولا علمي أنها كالملائكة لا تكره أحدًا، لظننتُ أنها كرهتني منذ تلك الليلة.

***

في الطريق إلى استراحة الطيارين، اصطدمت ذبابة كبيرة سوداء بالزجاج الأمامي للسيارة من الداخل، فتحتُ زجاجي حتى النصف تقريبًا، هرولت الذبابة ناحيته، لكنها اصطدمت بالجزء المغلق و انزلقت، في الطريق إلى أسفل استعادت الذبابة توازنها وطارت إلى أعلى وهربت من نافذة السيارة، خرجت من الفخ.

بدت الذبابة في عيني طائرة ميراج إسر ائيلية تصطدم بأحد جبال البحر الأحمر، تجلّت لي فكرة صنع كمين لطائرات الميراج.

تم إجهاض الفكرة مُبكرًا.

أفضل شيء على الإطلاق؛ استراحة الطيارين في حي السقالة، يكفي القول إنها كانت استراحة المشير عامر قبل أنّ يُقال ثم ينتحر أو يُقتل، فيلا فخمة (تشبه قصور محمد علي المنهوبة، وعرفت أنَّها كانت استراحة الملك فاروق)، من ثلاثة طوابق مقامة من الخشب بها أثاث راقي وسجاد فارسي باهظ الثمن، والكثير من الغرف القادرة على ابتلاع ثلاث عائلات على الأقل. تطل الفيلا مباشرة على البحر ولها شاطئ خاص.

***

- اللّيلة الّتي تسبق المغامرة -

مُنتصف الليل ونصف.

ليلة هادئة، وسّماء الغردقة الّتي لا تبكي المطر إلّا نادرًا مطلية باللّون الأسود وعلى سطحها بقع صغيرة مُضيئة لا يحجبها شيء، أدرتُ ظهري إلى استراحة المشيروأغلقت بابها بقدمي. استقبلتُ هواء البحر الرطب وتوغلتُ على قدمي في الرمال ناحية مياه البحر حاملًا كوبًا من الشّاي ومسدسًا شخصيًا (لأن الاستراحة على البحر ومن الممكن أنّ تعبر ضفادع بشرية إسرائيليّة البحر وتهاجم الاستراحة)، حملقتُ في مياه البحر الأحمر المشهورة بنقائها وهدوئها والّتي تشبه جبهة القتال بعد وقف إطلاق النار، البحر يمتد أمامي، وأسفاه حُجبنا عن الطيران فوق الناحية الأخرى من البحر (سيناء المحتلة) وقف اطلاق النار، قضيتُ النهار في غرفة العمليات، كان كلّ طيار يقضي يومًا في غرفة العمليات، رأيت على شاشة ضخمة الطّائرات الإسرائيلية على هيئة ذبابات تُحلق مُطمئنة في سّماء سيناء، كنتُ أغلي من الداخل، هؤلاء الأوغاد المحتلّون الّذين تجمعوا من شتى بقاع الأرض.

خطرتُ لي فكرة، أن أذهب إلى العدو بمفردي، قلتُ لنفسي: «سوف أذهب إليهم وليكن ما يكون»، هرولتُ إلى داخل الاستراحة مرة أخرى، دخلت الغرفة وفتحتُ الخريطة فوق السرير وجلستُ أضع الخطّة.

كتبتُ في ورقة مسارًا مناسبًا، جزيرة شدوان، رأس محمد، مطاررأس نصر اني، والعودة (إنّ أراد الله) بين جزيرتي تيران وصنافير، جزيرة شدوان، مطار الغردقة.

دوّنتُ في أعلى الورقة: «اذهب، فالطيار الماهر لا يهاب شيئًا».

***

- مغامرة فوق رأس نصراني -

يا طائرتي الجميلة، أرجوك لا تخبري أحدا بما سيحدث اليوم.

في صباح اليوم التالي، خرجتُ للتدريب وسط جبال وعرة تفصل الغردقة عن محافظات الصعيد، تحديدًا (zone 4)، بعد دقائق (للتمويه) هبطتُ وسط الجبال كي أهرب من مراقبة الرادار المصري.

طبقًا لخطة وضعتها اللّيلة الفائتة، اتجهتُ ناحية جزيرة شدوان في البحر الأحمر على ارتفاع منخفض Low fly متجنبًا الرادار، بسرعة 900 كيلومتر في السّاعة فوق سطح المياه بنصف متر تقريبًا، لو كان أحد ما يُراقبني من بعيد فإنه سيعتقد أنني أزحف بالطائرة فوق المياه.

عند جزيرة شدوان رأيتُ فنار السّفن، طرت على نفس الارتفاع وزودت السّرعة حتى 1150 كيلومتر في السّاعة كما لو كنت عصفورًا هرب من القفص، محتميًا من الرادار الإسرائيلي بارتفاع جزيرة شدوان (فيما بعد، تحديدًا في يناير 1970 دارت معركة عنيفة على الجزيرة.)

بعد دقيقتين تقريبًا، كنتُ فوق موقع مدفعية إسرائيلي عند رأس محمد، كان جنود المدفعية (نحو خمسة) يستحمون في مياه البحر الأحمر، مررتُ فوق رُءوسهم بسرعة عالية جدًّا، (بالتأكيد غطسوا في المياه خوفًا من أنّ تسحق الطائرة رُءوسهم)، بعدما تجاوزتهم نظرتُ في بيرسكوب القمرة، رأيتهم يهرولون خارج المياه (بالتأكيد مذعورين) بملابس البحر ناحية المدافع.

(أبلغوا عني.)

بعد زهاء دقيقة، كنتُ فوق مطار رأس نصراني، تطلّعت نحو، مررتُ فوق طائرات الميراج، واضحة فوق الممر كفتاة ممشوقة القوام ترتدي ثوبًا مموهًا، رأيتُ طيارين يهرولون ناحيتها، أثارت سرعتي العالية وارتفاع طائرتي المنخفض الذعر في نفوس الجميع. شعرتُ بالفخر، ورفعتُ قبضة يدي، فكل ما كنتُ قادرًا على فعله هو تخويفهم، وجعلهم قلقين دائمًا.

حسنًا هذا يكفي، استدرت بالطائرة يمينًا ومررت بين جزيرتي تيران وصنافير، ثم وصلت جزيرة شدوان. عدتُ إلى (zone 4) وارتفعتُ كي أظهر على شاشات الرادار المصري.

خوفًا من المُسائلة ولأنني انتهكت التعليمات، لم أخبر أحدًا بما فعلته، ولم أدون شيئًا في ملاحظاتي خوفًا من أن تقع في يد أحد.

اتضح فيما بعد أنّ «*اليوم مغامرة رائعة، والغد وقت الحساب*».

***

في الصباح الباكر، حان وقت الحساب أو الهجوم المُضاد بلغة الحرب، على حين غرّة، قامت أربعة وعشرون طائرة إسرائيليّة بالهجوم على المطار، انتشرت مثل وباء الكوليرا وأغلقت سّماء المطار، في الآن نفسه وقع ما لم أكن أرغب في رؤيته، كان أحد الطيارين المصريين في مرحلة الهبوط بطائرته، قام بمناورة للتخلص من حصار طائرات العدو فانهارت طائرته وهوت على الأرض، كان ذلك مؤسفًا جدًّا بالنسبة إليّ.

لم يكن أحد يعلم سبب زيارة الطائرات الإسرائيلية سوى أنا، لكن الحمد لله؛ الهجوم هيكلي (وهمي) هدفه بث الرعب في نفوسنا كما فعلت في اليوم السّابق.

في هواء السّماء، مظلة تتأرجح، كاد زميلي أنّ يدفع ثمن مغامرتي في اليوم السّابق، سقط بالمظلة بجوار المطار، ذهبتُ إليه فوجدته سليمًا، شعرتُ بالارتياح لأنه لم يتأذ بسببي.

***

كان دوستويفسكي[1] مؤلف رواية «المقامر» مولعًا بالقمار ويعرف أدق خبايا الروليت، ولأنّ بيوت القمار كانت ممنوعة في روسيا كان يذهب إلى ألمانيا كي يقامر، وقال عن نفسه «أصبحت أعرف السّر حقًا، إنه بسيط للغاية ......»

ذات مرة أهديتُ رواية المقامر إلى أحد الطيارين الجدد وكتبت في الإهداء، «إنّ لم يقامر الطيّار بحياته فسيكون عاديًا مثل الجميع»، كنتُ أقصد أنّ اليكسي ايفانوفتش، بطل الرواية يقامر كي يُشبع غريزة بداخله، واضعًا أمواله في كفة، وحظه في كفة، تمامًا مثل طيّار يطير فوق سطح الأرض بارتفاع متر واحد بسرعة تتجاوز الألف كيلو متر في السّاعة، يضع حياته تحت رحمة خطأ بسيط أو شيء مُرتفع قليلًا عن الأرض، يفعل ذلك كي يُشبع غريزة ما بداخله، ربما الشعور بالزهو وهو يُسيطر على تلك الآلة العجيبة، ومن أجل ذلك الشعور فإنّه يقامر بحياته.

***

هل جربت الأكوا بارك والانزلاق داخل أنبوب مياه مُستدير يُشبه السوستة، إنّ فعلتها فما رأيك أنّ تكرّرها بطائرة حربيّة!!!

يقول الروس أشياء كثيرة خاطئة عن الميج 21، منها أنَّها لا تستطيع الطيران بسرعة أقل من 450 كيلومتر في السّاعة، ولا تستطيع عمل سبن (مناورة رأسية تتلوى فيها الطائرة كأنَّها تنزلق داخل سوستة)، فوق مطار المنصورة علّمتُ

---

[1] فيودور دوستويفسكي: كاتب روسي شهير، من أشهر رواياته «الجريمة والعقاب».

الخبير الروسي كيف يبقي الطّائرة في الهواء عند سُرعات أقل من 450 كيلومتر في السّاعة بكثير؟ حتى السُرعة صفر، وفوق مطار الغردقة عملت سبن.

ذات ظهيرة، كان قائد مطار الغردقة، عبد العزيز بدر (يُصارع سمير عبد الرازق) يقف بجوار طائرة ميج 21 بمقعدين، استدعاني إلى مغامرة جويّة قائلًا: «سمعت أنك بتعمل سبن بالميج 21، والميج لا تعمل الحركة دي وتخرج منها سليمة، تعالى وريني».

قلتُ لنفسي «ما بلاش»، جلس في المقعد خلفي، انطلقتُ بالطّائرة إلى ارتفاع شاهق يتجاوز أطول ناطحة سحاب قد يصل إليها الإنسان يومًا مئات المرات. بدأت أنزل بالطّائرة رأسيًا بسرعة عالية كأفعى تنزلق على غضن شجرة وهي تلف جسدها حوله، وعبد العزيز خلفي يُردد بعض آيات القرآن وقلبه يقفز.

على الأرض وضع يده على كتفي وضغط عليه، قال وهو يبتسم: «أنت كنت هتموتني يا سمير».

وعانقني.

***

حدث ذلك في يوم لن أرهق ذهني بمحاولة تذكر تسلسله في أيام الله.

انطلقت الكلمات من حنجرة الرّجل الأصلع ذي الملامح الصّعيدية الصّارمة، عينيه خلف نظارة شمسية سوداء، قال باندفاع وحرارة: «أنتو جايين تتفسحوا؟»، سأل ساخرًا: «ناقصكوا سيما!»، دوت كلماته الجافة في أرجاء استراحة المشير، انتفضت يده في الهواء بقوة وأدار ظهره لنا. مضغتُ كلامه المرّ وتأملتُ سقف الاستراحة و أثاثها الرّاقي، عرفتُ أن أيامها أصبحت معدودة، وقد كان. رميتُ نظرة صارمة ناحية وزير الحربية؛ محمد فوزي، وتمتمتُ ببضع كلمات لا تليق.

بسرعة عالية، قامت شركة الكبريت ببناء استراحة للطيارين داخل مطار الغردقة، في حقيقة الأمر لم تكن سوى كشك بشع (زنزانة) من الخشب المضغوط وبداخلها أسرّة، في ذلك الوقت، كان من الحكمة توقع السيء.

أصبح المطار عبارة عن، ممر للطائرات، كشك مطعم، كشك للطّباخ والسفرجي، وكشك استراحة للطيارين، أما الحمّام، لا يمكن أبدًا تسميته ببيت الرّاحة، فسجون السياسيين أكثر راحة منه، كشك في وسطه حفرة فوقها خشبة يجلس المرء عليها، مكان جذّاب للقيء، ورغم بشاعة الحمَام فإنه أفضل من حمامات مطار المليز، ففي الشّتاء تكون درجة الحرارة في المليز تحت الصفر ومياه الخزانات مُتجمدة، ولذا قبل دخول الحمَام يصعد جندي فوق خزّان المياه ويُكسر الثلج، يضربه بآلة حادة حتّى الموت، في النهاية لا تجد سوى بعض النقط.

ظل الماء في مطار الغردقة لا ينفع، مخلوطًا بالجاز.

***

أمام المعيشة القاسية والحياة البائسة في مطار الغردقة (الإصلاحية) لم يصمد بعض الطيارين أكثر من أيام، مَن ينجو ويقتنص إجازة لا يعود بدعوى المرض. توسلتُ إلى الله أن يعود مُناوبي، علاء شاكر، كي يتلقّف مني حالة الطوارئ، كنتُ أقضي جلّ يومي في قمرة الطّائرة، حالة طوارئ أوّلى، ساخطًا على عدم عودته. كان الوقت يمر ببطء وحلقتُ شعري زيرو بشفرة الذقن، كنتُ أبدو مُخيفًا، أقسمت أنّ يكون سقوط طائرة للعدو ثمن عودته كما كان.

لا بُد أن يعود اليوم وإلا ستضيع صلاحية التذكرة الّتي حجزتها بخمس جنيهات لحضور حفلة شم النسيم بحديقة الميريلاند، أرسلتُ جُنديًا إلى محطة الأتوبيس، حجز ليّ تذكرة إلى القاهرة، سأغادر، أقسم، سأترك المطار حتّى وإن لم يَعُد!

أخيرًا ها هو فوق الممر الفرعي، يمشي وكأنه في رحلة تصوير بأدغال أفريقيا، كان ذلك أبعد الأمور عن التصديق، احتاجت عيني ثوانٍ كي تتذكر ملامحه، علاء شاكر! كنتُ أظن أني سأضربه حتّى الموت، ملأتُ رئتي، أنقذني، ابتسم ابتسامة المذنب ثم انفجر بالأعذار والتأسف. سحبته من يده على حين غرّة ناحية كشك الاستراحة، ما كان يظن أنّ التقشف سيصل إلى هذا الحد.

لاحقًا، ارتديتُ ملابس ملكية غاية في الأناقة، وحذاء يلمع، ليتني لم أقص شعري. غادرتُ الغردقة، كانت عائلتي ونايت كلوب حديقة الميريلاند في انتظاري.

***

كانت أمي تجلس بجانبي، ذراعي يُعانق عنقها، تضحك، ما زلتُ وسط سُيول القبلات واستقبال الأذرع، فجأة رن جرس الهاتف، ذهبتُ إليه ورفعتُ السماعة، على الضفة الأخرى رضا إسكندر (من مطار غرب)، بعد تبادل السلامات طلب مني الحضور إلى مطار غرب، تعثرت في نطق الكلمات، أخبرته أنني وصلتُ البيت حالًا، أنا في إجازة، وفوق كل شيء أتبع مطار الغردقة، قال: «تعالى بس، فيه حاجات من اللي أنت بتحبها هتحصل»، لمّع عقلي.

لم أجادل، طلبتُ منه سيارة فأخبرني أنها تنتظر أسفل البيت. أغلقتُ الخط وذهبتُ ناحية الشرفة فوجدتُ سيارة جيب سوداء في انتظاري، والسائق يقف بجوارها، ينظر حواليه، كأنما ينتظر هجوم، أقلقني.

ودعتني أمي وكأنه الوداع الأخير، تركتُ معها سلامًا إلى أبي.

إنّها فكرة جديدة لقضاء السّهرة بدلا من الفرجة على سهير زكي في نايت كلوب حديقة المريلاند، الآن التذكرة الّتي حجزتها في إجازة سابقة بخمسة جنيهات أصبحت عديمة الأهمية.

يا إلهي، لو كنت قضيتُ اللّيلة في اللهو لما واجهت الموت، ولمّا تم اتهامي بإسقاط طائرة مصرية.

***

كم كنتُ أتمنى أن تقرأ أمي هذه الأوراق، أستطيع كل ليلة أن أقرأ إليها صفحة أو صفحتين رغم أنها لم تعد معنا.

وصلتُ مطار غرب القاهرة ودخلتُ مكتب قائد اللّواء، وشرح لي المهمة، حماية طائرتين سوخوي تنفذان مهمة الاستطلاع والتصوير لممر متلا ومطار المليز، ولحمايتهما تم اختيار رف (أربع طائرات) ميج 21، تم اختياري مع «سمير عبد الله» (ليدر)، «رضا صقر»، و«اسماعيل إمام» الّذي أرفع قبعة السيد تشرشل لمهارته. الهبوط بمطار بلبيس، وهناك تتمركز السوخوي، الطيران zero feet، أيّ التسلل أسفل حدود رؤية الرادار حتى قناة السويس، ثم الارتفاع خمسة كيلومترات فوق سطح الأرض والطيران حتى الهدف، تصويره ثم العودة.

مُفاجأة سارة، تحمستُ للغاية، لكني لم أستطع نسيان حفلة المريلاند، في تلك الليلة زارني في المنام حلم سيء، جعلني أستيقظ مفزوعًا، لكن تفاصيله ضاعت من ذاكرتي للأبد، لم أستطع العودة إلى النوم بعمق، استيقظتُ على الموعد دون تنبيه خارجي.

في صباح اليوم التالي 14 أبريل/نيسان 1969(عيد شم النسيم)، تناولنا آخر جرعات التلقين في قاعة المحاضرات.

كنتُ في الهواء عند الساعة التاسعة، داخل طائرة رقم 8099، ارتفاع منخفض جدًّا (zero feet) حتى مطار بلبيس، وهناك كانت السوخوي جاهزة، التحقت بالرحلة و أقعلت في حماية أربع طائرات ميج 21.

اجتاز سمير (الليدر) ومعه رضا طائرتي السوخوي وأصبحا في المُقدمة، في اللاسلكي أخبرنا أننا سنحمي السوخوي من الأمام والخلف، وبذلك أصبحتُ أنا وإسماعيل خلف السوخوي كما لو كانت تجرنا خلفها بحبل. لم أقرأ ذلك في كتاب (لا أقصد الإساءة إلى أحد ولكن هذا ما حدث).

الطيران (zero feet)، كانت الطائرة تشق الحقول، العشب يُغني والأزهار والورود متفتحة، مشهد رائع للربيع يشبه تورتة عيد الميلاد، على ارتفاع أمتار بإمكاني رؤية ثمار التوت بلونها الأبيض والأحمر والأسود واضحة فوق أغصان أشجارها، بل وأحيانًا تشتبك مع بطن الطائرة، وحينما تجاوزنا القناة، كانت الصحراء.

فوق الهدف التقطت السوخوي الصور، و أثناء الدوران فوق ممر متلا للعودة سمعتُ صوت المُرشد اللاسلكي (الموجّه الأرضي)، صوت محمد الطباخ:

«طيارات وراك ب 40 كم.»

بعد الدوران، كان سمير ورضا قد ابتعدا وخلفهما السوخوي تحاولان اللحاق بهما كما لو كانتا فرستان عجوزتان، لم يكن هناك سببٌ للعجلة.

سمعتُ صوت الموجّه مرة أخرى.

«طيارات وراك ب 20 كم.»

قلتُ في نفسي: «على الرحب والسّعة، قدامنا وقت».

بعدها بثوانٍ.

«طيارات وراك ب 3 كم.»

لما العجلة؟

وكزني إحساس غريب غير مُريح للغاية، ليس هناك مُتّسع من الوقت، سريعًا، قمتُ بمناورة حادة ناحية اليسار ومعي إسماعيل، لأننا أصبحنا في نطاق صواريخ طائرات الميراج (مُصمّمة لإطلاق الصواريخ وإصابة الهدف من مسافة ثلاثة كيلومترات).

انفجر صاروخ في تلك المساحة الضيقة بين طائرتي وطائرة إسماعيل، يا إلهي كان ذلك وشيكًا!!، تنهدتُ بعمق وسعادة كمن نجى من الموت في الوقت المُناسب، وميض هائل، أصبح الفراغ الضيق بين الطائرتين مزدحمًا بشظايا الصّاروخ، ألقيتُ خزانات الوقود استعدادًا للاشتباك، أخبرني إسماعيل في اللاسلكي أن شظية أمسكت بحلقة مُحرك طائرته وأنها لا ترضخ له، «أولاد...»، رمقتُ بغضب الطائرة الّتي انطلق منها الصاروخ، طلبت منه التخلص من الاشتباك والهبوط في أقرب مطار، و أنا سأتدبر أمري.

وبذلك، أصبحتُ وحيدًا وسط أربع طائرات إسرائيلية، نظرتُ في البيرسكوب فوجدت طائرتين خلفي تحاولان اقتناصي. يا إلهي، ماذا أصنع؟ تأكدتُ أنها نهايتي، يا ليتني تقاعدتُ قبل هذا اليوم، قدمت لله كل الوعود كي ينقذني، لم أكن أدري أن الله وثق في وعودي أم لا؟ كنتُ في حاجة إلى صلوات الجميع من أجلي لمدة تسعة وتسعين يومًا.

***

الأسر والتعذيب والذل والمعتقل في انتظاري لو سقطتُ هنا في الجزء الشرقي من قناة السويس (المُحتل)، أثناء الحرب العالمية الثانية كان الطيارون اليابانيون ينتحرون بقنبلة يدوية قبل أن يُمسك بهم جنود البحرية الأمريكيّة.

«ميتًا أو حيًا لا أريد أن يُمسك بي الأعداء»، قال هتلر في آخر أيام الرايخ الثالث، بينما كان الروس يكسرون أبواب برلين. غاصت فكرة «الموت أفضل» داخل عقلي ولم يسبق أنّ مرت عليّ، ولم أكن أتوقع أن تكون نهايتي هكذا.

مرت دقائق عصيبة، كافحتُ وقاتلتُ فيها من أجل البقاء في السّماء، قمتُ بعشرات المناورات الأكثر إثارة من أحدث ألعاب الفيديو، لا فائدة من كل هذا؟ وفي كل مرة أقترب من قناة السويس ساحبًا معي الطائرات الإسرائيلية، حتى

إن سقطت طائرتي يمكنني أن أقفز بالمظلة في الجزء الغربي من القناة، كانت عينيّ ترقصان والوقت لا يمضي والقناة تهرب أمامي والنجاة تبدو مُستحيلة وعليّ أن أستمر.

لم تخذلني طائرتي وأرض سيناء، فخلال التاريخ العسكري لا توجد حقيقة ناصعة أكثر من أنّ «الأرض تلفظ مُحتلّها وتعمل ضده»، أخيرا، أصبحت فوق قناة السويس، كنتُ في حاجة للمُساعدة، هبّت ثمانِ طائرات لنجدتي مقسمة بالتساوي بين مطاري المنصورة و إنشاص.

أرسلت إسرائيل أربع طائرات أخرى.

وبدأت معركة جوية ضخمة.

رفعتُ طائرتي إلى السّماء، كشفتُ سّماء المعركة وتمنيتُ لو كنتُ رسامًا، دائرة واسعة، مُتحركة كدوامة، مكدّسة بستة عشر طائرة، ميراج إسرائيلية خلفها ميج مصرية خلفها ميراج وهكذا.......

اشتد الصراع، كل طائرة تحاول اقتناص الطائرة الّتي أمامها.

لا أحب الانتظار طويلًا، كمياه شلال هائج هبطت من أعلى بسرعة عالية فوق طائرة ميراج كأنني أقع عليها، فزع الطّيار، كنتُ على وشك الارتطام به لكنه خرج من الدّائرة.

وبهذا، انهارت الدائرة بالقوة.

اتجهت الميراج ناحية العودة، كادت أنّ تهرب لكني صعدت مرة أخرى وراءها، أصبحت قناة السويس خلفي، حان الوقت المُناسب، أطلقتُ الصّاروخ، فاصطدم بمحرك الطائرة، انفجرت وتصاعد منها دخان أسود، أطلقت

الصّاروخ الثاني، قبل أن يصطدم بالطائرة ارتفع لأعلى ومرّ من فوق الانفجار الّذي بدا كالانفجار الكبير الّذي تكوّنت منه الأرض.

شعرتُ بسعادة بالغة لن أنساها، فالطيار لا ينسي أول مرة يطير فيها، أول طائرة يقتنصها في اشتباك جوي.

الآن يستطيع شعري أن يكبر ويرى النور.

أصبحتُ وحيدًا فوق سيناء، وطائرات الميراج تعود إلى قواعدها بعد فض المعركة الجّوية، سيدفعها الانتقام للاشتباك معي وسأكون صيدًا سهلًا لها، قررتُ العودة سريعًا.

حينما تجاوزت قناة السويس، ظهر بجانب شعور النصر شعور أخلاقي آخر أستطيع وصفه في سبع كلمات «في طريقي للنصر قضيتُ على شخص ما»، لا بُد أنّ خلفه امرأة ستصرخ ويرتفع عويلها، لكنه كان أيضًا حريصًا على قتلي.

لم أستطع انتزاع عقلي من دوامة الفكرة، وكأنه يُعاقبني بموته، لكن صدقني أنتم من بدأ الحرب، هل جئتم إلى بلادنا من أجل السّياحة والنزهة وزيارة الأقصر وأهرامات الجيزة وتحية أبو الهول!!! إنَّه يستحق القتل لأنه نفذ أوامر قادته اللعينة، ولو عصى الأوامر العسكرية لكان أيضًا يستحق القتل!

جئتم لقتلنا واحتلال مُدننا، ومن يعتدي على مدينة تكون نهايته في باطن أرضها، هذا ذنبك أنت. لم يستطع الرد، وبعد مناقشته تقبّلتُ فكرة قتله، وتحمستُ للفتك بمزيد من الطّائرات والطّيارين.

***

كان الجّو ربيعًا، ولمبة الوقود الحمراء تومض، بالكاد أوصلني الوقود إلى مطار بلبيس، أوقفتُ الطائرة على ممر فرعي بالقرب من إحدى الدشم، نزلتُ سلم

الطائرة والزهو يغمرني، تجمع الميكانيكيّة حولي، كانت الطائرة بلا صواريخ وعيونهم تسألني أين الصواريخ؟ أخبرتهم أنني أسقطتُ طائرة ميراج، حملوني على الأعناق وهتفوا «تحيا مصر»، كانت الفرحة تشع من وجوه الجميع، عدا شخص واحد؛ يقف بعيدًا بوقاروجديّة؛ الطلياوي (قائد لواء السوخوي).

ذهبتُ إليه، قدمتُ له التحية العسكرية، كان وجهه غريبًا وفي أسوأ حالاته، وكانت عيناه حادتين وطافحتين بالغضب، يحتاج إلى كلمة واحدة ليحترق دون عود ثقاب، لف رأسه وأشار ناحية الطّائرة، تشق طريقها بالظهر ناحية باب الدشمة، يدفعها أربعة من الميكانيكيّة بأيديهم (حينما تكون الطائرة قريبة من الدشمة، يلفها الميكانيكيّة حتى يُصبح ظهرها إلى باب الدشمة ويدفعونها بالأيدي إلى الداخل، وحينما تكون بعيدة يسحبها تراكتور (جرارزراعي صغير) إلى الدشمة، وفي كلتا الحالتين تدخل الدشمة بالظهر، تستقربالداخل ويكون وجهها للباب، حتى تكون جاهزة للخروج مرة أخرى)، سألني الطلياوي: «فين الصواريخ؟»، أخبرته أنني أطلقتها على طائرة ميراج إسرائيلية وانفجرت، انتظرتُ استقبال التهاني وقصائد الثناء وطوق من الياسمين في عنقي، حدق بي وقال بحدّة وخشونة: «خلاص اكتب تقرير»، وانصرف وهو يُغطي أوراقه وأفكاره.

لماذا أكتب تقريرا إلى قائد لواء السوخوي وأنا طيار ميج 21؟ لماذا يعاملني هكذا، وكأنني أسقطتُ طائرته، أوسرقتُ كيس نقوده؟!

دخلت الطّائرة الدُشمة، ودخلت خلفها سيارة الوقود (البوزر) الضخمة، تقف في باب الدشمة وتسده، تضع أقدامها الخلفية داخل الدشمة وأقدامها الأمامية خارجها، وتصب الوقود في خزانات الطائرة.

توقف الطلياوي في الطريق، نادى عليّ، ذهبتُ إليه، سألني: «إنت شوفت الطيارة كويس قبل ما تضربها؟»، قلتُ في نفسي: «يكونش ضربت طيارة عبد الناصر!!»

***

داخل استراحة الطيارين اتصل بي «ممدوح طليبة» من مطار انشاص (قائد لواء الميج 21، وصاحب الكمين الشهير، كمين طليبة في أكتوبر/تشرين الأول 68 وراح ضحيته أربع طائرات ميراج إسرائيلية)، قال: «أنت متأكد يا سمير إنك ضربت طيارة إسرائيلية؟»، تعجبتُ وسألته عما يقصد، أجاب: «يعني أنت ماضربتش طيارة أحمد نور الدين؟» أربكني وشعرتُ بصدمة قوية، آخر شيء أتوقع حدوثه، إسقاط طائرة مصريّة، جريمة، لن يغفرها أحد، دفعني طليبة من ظهري دفعًا في بحيرة الحيرة والاحتمالات، لا أدري بماذا أجيب؟

«يا أفندم، الفيلم اللي على الطيارة هيوضح كل حاجة».

«ماكنش فيه على الطيارة أفلام للتصوير».

وضعتُ يدي على رأسي، أخذتُ أعصر ذاكرتي و أتذكر ما حدث.

فجأة، صرختُ في الهاتف بحماسة: «يا أفندم، إزاي أضرب طيارة من غير ما أشوفها؟ وبعدين أنا أكيد أعرف أميز الطيارة الميراج من الطيارة الميج»، لكن الحمد لله؛ أغلق طليبة الهاتف قبل مُدة.

ندمتُ على الإجازة وكل شيء، دونتُ التقرير وجلستُ أنتظر، تمنيتُ لو تناولتُ زجاجتين كونياك، لم أتعود على الهروب من أيّ مواجهة، لكنّي لا أستطيع مواجهة تُهمة قتل طيار مصري، أخ لي.

عند الظهر، استدعاني قائد اللّواء إلى مكتبه، حملتُ التقرير ومضيت إليه بتركيز، كانت أشعة الشمس حارقة وتمكنت تلك المسافة القصيرة من استهلاك جميع أفكاري، أفزعتني فكرة المحاكمة العسكرية. إنني لا يمكن إلا أن أكون طيارًا، حلمت بهذا منذ أن ذهبت مع أبي إلى مطار ألماظة ورأيت هناك طائرات المواصلات، شعرت أنني عثرتُ على عالمي، مُستقبلي، المكان الّذي أنتمي إليه و أبحث عنه، أصبحتُ أخزن الجزء الأكبر من مصروفي في حصالة من الخشب كي أشتري طائرة حقيقية، وكان أقراني يذهبون للسيرك أو يشاهدون أفلام ديزني أما أنا فقد وهبتُ نفسي للطيران، يسرني الوقوف بعيدًا عن سور المطار فوق مكان مُرتفع وأمتع نظري برؤية الطائرات وهي تقف أو تتحرك فوق الممر، وعلى مدى أعوام كنتُ أطير أثناء نومي، وحينما أستيقظ أظل في السرير لدقائق أتخيل نفسي أحلّق في السّماء بطائرة، ثم أنهض وأغسل وجهي وأذهب إلى أبي و أتوسل إليه أنّ يأخذني معه إلى المطار، كان يُحذرني؛ إنْ لم تذهب إلى المدرسة فلن تكون طيار أبدًا، هذا ما جعلني أصغي إلى كلمات أساتذتي عن النحو والصرف والعلوم والجغر افيا، وأسأل نفسي: «لماذا يجب أنّ أتعلم كل هذا إنني فقط أريد أنّ أكون مثل الصّقر؟».

قرأت أنه الطائر الوحيد الّذي ليس له جفون (يرمز إلى الآلهة الوثنيّة الّتي لا يجب أنّ تنام أو تغفل عما يحدث)، ومن نُبله لا يهاجم أعشاش الطيور ولا يأكل الحيو انات الميتة، لا يغدر ولا يصطاد فر ائسه إلّا وهي تُحلق في السّماء.

كنتُ وما زلتُ مولعًا بالطيران وفي غرفتي طائرة كبيرة، للأسف، من الورق المقوّى.

***

استقبلني قائد اللّواء بابتسامة مموّهة خارقة للبصر تفور فوق شفتيه، كان وجهه صعبًا على القراءة، وهادئًا لدرجة لا يمُكنني تحملها.

«أنا آسف».

قالها بطريقة لطيفة جعلتني أنظر إليه بريبة، هل يعتذر عما حدث أمّ يعتذر عن مصيبة قادمة؟ أخبرني أنّ أحمد نور الدين قفز بالمظلّة بعد وقوع طائرته في إسبن ولم تستجب للخروج منه، وأنّهم ظنوا أنني أسقطتُ طائرته بالخطأ.

حصلتُ على تهنئة وعِناق ومكافأة نصف ألف جنيه.

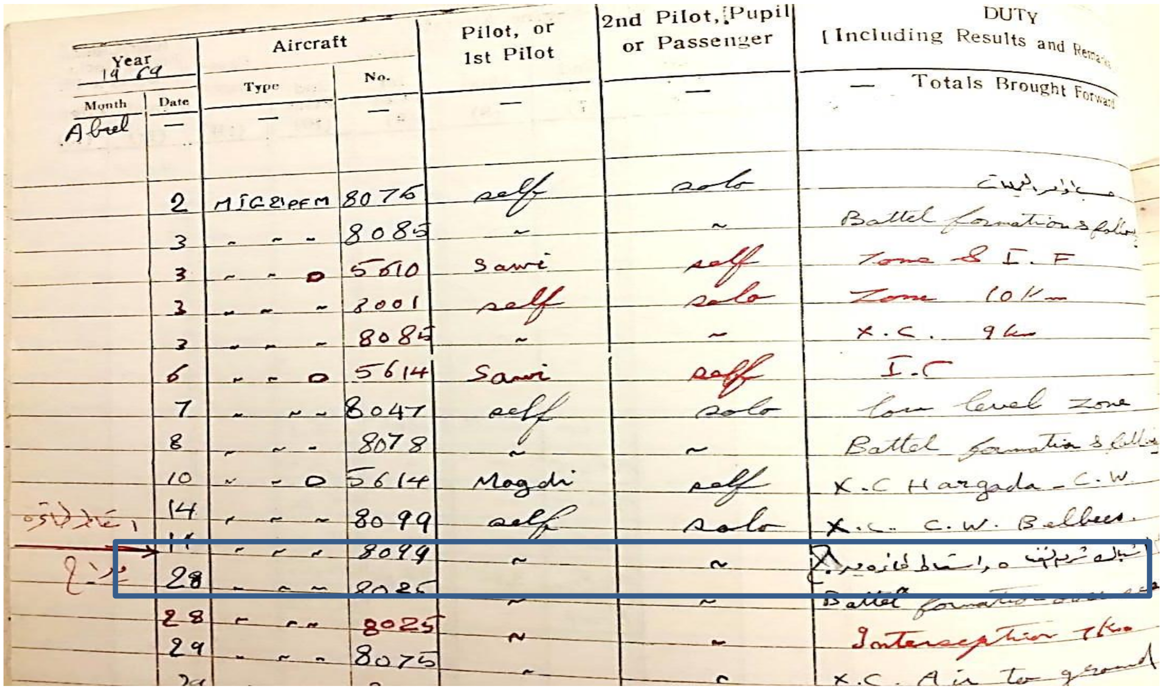

Year 1969 Month	Date	Aircraft Type	Aircraft No.	Pilot, or 1st Pilot	2nd Pilot, Pupil or Passenger	DUTY (Including Results and Remarks)
Abrel	—	—	—	—	—	— Totals Brought Forward
	2	MIG21PFM	8076	self	solo	[illegible]
	3	- - -	8085	-	-	Battel formations & follow
	3	- - D	5610	Sawi	self	Zone & I. F
	3	- - -	8001	self	solo	Zone 10 Km
	3	- - -	8085	-	-	X.C. 9 Km
	6	- - D	5614	Sawi	self	I.C
	7	- - -	8047	self	solo	low level zone
	8	- - -	8078	-	-	Battel formation & follow
	10	- - D	5614	Magdi	self	X.C Hargada - C.W.
[illegible]	14	- - -	8099	self	solo	X.C. C.W. Belbees.
	14	- - -	8099	-	-	[illegible]
[illegible]	28	- - -	8085	-	-	Battel formation [illegible]
	28	- - -	8025	-	-	Interception 7 Km
	29	- - -	8075	-	-	X.C. Air to ground
	[illegible]					

من كتاب الطيران الخاص بي، توضح تاريخ الاشتباك ورقم الطّائرة وإسقاط طائرة ميراج

***

كعادة الطيورلم يمكث السّرب 16 في مطار الغردقة طويلًا، أعيد تمركزه بعيدًا عن البحر، في مطار إنشاص، على حدود القاهرة الشّرقية، في تلك الأيام عبر ضفتي القناة كان الجنود المصريون يتحدثون مع العدوّ، يتراشقون معهم الشتائم ويرشونهم بدانات المدفعية الثقيلة، وذلك رغم سريان وقف إطلاق النار، يمكن مقارنة تلك المناوشات بشجارات الشوارع غير المؤذية، فالحرب لا تُقاس بعدد طلقات مدافع الهاون والصواريخ، ولكن بعدد من نجح منهم في الوصول إلى قلب هدف حقيقي، على أيّ حال، ذلك الشّجار الّذي يسبق اندلاع الحرب؛ حرب الاستنزاف.

في مطار إنشاص

في أواخر أيام الهدنة، كنتُ أقود طائرة ميج 21 في منطقة التدريب رقم 3 (zone 3)، شرق مطار إنشاص، بالقرب من الإسماعيلية، مدينة ساحرة وشابّة، تبدو من نوافذ الطّائرات غابة خضارها ناصع لا شائبة به، تتقنفذ

بداخلها بيوت قصيرة و أنيقة، الصف الأول منها يقع على حافة قناة السويس وبحيرة التمساح، لم تكن المدفعية والطّائرات الإسرائيلية قد عاقبت المدينة الجميلة بعد بالقذائف والقنابل وحولتها تدريجيًّا إلى خرائب وقتلت ودفنت ذكريات من تبقى من أهلها بين الأنقاض، لا يعلم هؤلاء المساكين أنَّه بعد أشهر ستجبرهم قسوة القصف على إخلاء المدينة وتركها للأشباح، فيما يُشبه سياسة «القصف الاستراتيجي» الّتي ذبح بها الحلفاء المُدن الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية.

في منطقة التدريب رقم ثلاثة، كنتُ أدرب طيارين جدد عائدين من روسيا على تكتيكات القتال الجّوي، وكما يُغطي الثلج في الشتاء طُرقات موسكو وبيوتها، غطى الروس حماسة هؤلاء الطيارين وحبهم للمغامرة بأقوال مثل، «لو فعلت هذا ستتحطم طائرتك مثل كأس من الزجاج»، «لا تُجرب، لأنك إذا فشلت حتمًا ستموت»، ويرجع ذلك لأنَّ الطيارين الروس يتعاملون مع طائرات الميج بالورقة والقلم ويقدسون دليل الاستخدام ولا يعصون أوامره، كما لو كانت من عند الله، أمّا الطيارون المصريون فتعلموا الكثير بالاعتماد على الله والمجازفة بالنفس و اقتراف جرائم يُحرمها إنجيل الميج، مثل الهبوط اضطراريًا (بسبب قلة الوقود أو عطل في الطائرة) فوق طُرق مُغطاة بالحفر والمطبات، (أتذكر ما قاله ليّ رفيق هبط بطائرة ميج 21 فوق طريق سريع، وصف الطريق بأنَّه غير مؤهل لقيادة السيارات أصلًا)، كل هذا لإنقاذ الطّائرة بدلًا من التخلي عنها والقفز بالمظلة. تخيل أنك تقود سيارة على طريق سريع، وهناك طنين قوي لطائرة فوق سيارتك مُباشرة، يتخطى الطنين سيارتك وتهبط الطائرة أمام عينيك على الطريق، هذا مُثير، وأكثر إثارة بالنسبة لقائد الطائرة، فحياته قد تتوقف عند المرور فوق مطب أو حفرة، تُصبح الطائرة قنبلة هو في قلبها.

***

أثناء الحصة استدعاني المُرشد اللاسلكي (الموجّه)، «21 back to base»، يطلب مني العودة إلى المطار، لا بُد أنّ هناك شيئًا مَا.

فور أنْ هبطتُ سُلم الطائرة، أخبرني أحد الميكانيكيّة (يحمل السلم وثبته بطائرتي فور أن توقفت على الممر)، أخبرني أنّ رئيس شعبة عمليات القوّات الجويّة؛ اللّواء صلاح المناوي، ينتظرني داخل غرفة مكتب قائد اللّواء، وضعتُ الخوذة في يده، بينما التراكتور (جرار زراعي صغير) يسحب الطّائرة إلى داخل الدشمة، تحركتُ ناحية استراحة الملك فاروق حيث غرفة مكتب قائد اللّواء، قرعتُ الباب ودخلت، لم يكن قائد اللّواء موجودًا، كان رئيس شعبة عمليات القوّات الجويّة يجلس على كنبة يمين المكتب، وحيدًا، يُدخن السجائر، أشار إلى مقعد عن يساره، يقصد اجلس هنا، أخبرني باختصار أنّ هناك مروحيات إسرائيلية مُزعجة لجنودنا من نوع بايتر (مروحية صغيرة بمحرك واحد)، تُحلق يوميًّا في الجانب الشرقي لقناة السويس، ولا تتجاوزه، تصور للمدفعية الإسرائيلية مواقع الأهداف المصرية (وربما تشوش على أجهزة الرادار المصرية والموجات اللاسلكيّة، حسب ما أتذكر).

المطلوب، إسكاتها، إسقاطها.

سألته: «بيكون معاها طيارات حماية، يا أفندم؟»

أجاب: «لا».

داخل إحدى الدشم، تم تجهيز طائرة ميج 21 خصيّصًا للعملية، حُمّلت بصاروخ جديد موجه بالأشعة عوضًا عن صواريخ البصمة الحرارية، والّتي تتبع وتسير خلف بصمة الهدف الحرارية حتى تصل إليه.

***

داخل الدشمة، صحبني مذياع من نوع Aiwa ياباني، لم أشغله مرة واحدة، أسوأ ما في الأمر أنه عليّ الانتظار بملابس الطيران منذ أول ضوء للنهار، مُستعدًا للإقلاع في أيّ وقت، في الغالب يبدأ الهدف عمله ما بين الساعة العاشرة والثانية عشر لذا أكون في ذلك الوقت حالة أوّلى داخل قُمرة الطائرة، فرشتُ بطانية أسفل جناح الطّائرة والصواريخ، أسترخي فوق نصفها و أثني النصف الثاني فوقي كغطاء (أتمني من الله ألّا يصل ذلك إلى مسامع قادتي)، قضيتُ أوقات ثقيلة وطويلة جدًّا على هذه الحالة وأحيانًا من شدة البرد كنتُ أرتدي فوق ملابس الطيران معطفًا أسود طويلا، لحسن الحظ تذكروني بعد ثلاثة أيام، حضر قائد السرب إلى الدشمة وطلب مني الانتقال إلى استراحة الطوارئ، والانتظار بجوار هاتف العمليات.

الاستراحة عبارة عن دشمة من الخرسانة، تتكون من صالة بها أنتريه من الجلد وهاتفين وحمام وحجرة للطعام وأخرى للنوم بها أسرّة، في اليوم السّادس أو السّابع، رن هاتف غرفة العمليات، قفزتُ مُسرعًا ناحيته، قال باختصار ودون تفاصيل: «الهدف الآن على شاشة الرادار»، هذا ما كنتُ أنتظره لأيام، دُشّنت العمليّة، لا أتذكر إنّ وضعتُ سمّاعة الهاتف مكانها أم لا، هرولت إلى الدشمة، و أقلعتُ بالطائرة.

في منتصف الطّريق، تلقيتُ رسالة على اللاسلكي، «21 back to base»، تعني «ارجع حالًا، لا تكمل الطريق»، أكملتُ، فكرر المُرشد اللاسلكي بغضب، «21 back to base»، أبلغتُ في اللاسلكي، «Ruger»، وبدأت في عكس اتجاهي والعودة. كان التعارف بين المدفعية المصريّة والطّائرات المصريّة

مفقودًا، ولم يستطيعوا التواصل مع الدفاع الجوّي، لذا خافوا من إسقاط طائرتي بمدفعية صديقة، الحمد لله لم يتم التضحية بي.

فيما بعد وصلت من الاتحاد السوفيتي أجهزة تعارف بين المدفعيّة والطّائرات (أجهزة تمييز تُثبت في الطائرة وتقرأها المدفعية أثناء تحليق الطائرة). تم تدمير مروحيات تصويب المدفعيّة بصواريخ أرض جو، وبعدها مباشرة اندلعت حرب الاستنزاف.

***

سلاح الاتحاد السوفيتي في يدنا، وسلاح الولايات المتحدة في يد إسرائيل، خبراء الاتحاد السوفيتي يضعون علمهم تحت تصرفنا، والعسكريون الأمريكيون في جيش إسرائيل، يقاتلوننا من وراء المدافع ومن الطائرات الّتي تحمل تزويرًا وادعاءً نجمة داود.

- جمال عبد الناصر، في خطاب أمام مجلس الأمة وإلى ملايين العرب عبر موجات المذياع.

تبقى القرى غارقة في نعيم النسيان والعزلة حتى يظهر فيها بئر للبترول، منجم للذهب، أو تشق الحكومة أمامها طريقًا سريعا وتضع على جانبه لافتة زرقاء مدون عليها بالقلم الأبيض اسم القرية.

بالنسبة لقرية شاوة الصغيرة بإقليم الدقهلية فالوضع مختلف، وجود مطار حربي (مطار المنصورة) داخل حدودها جعل اسمها يتردد في الصحف العالمية وقنوات التلفاز كثيرًا، وجعلها نقطة على الخرائط العسكرية عليها دائرة حمراء، وباتت أثناء الحرب مزارا سياحيًا لطيور الميراج والفانتوم الإسرائيلية.

كانت بيوت شاوة والبقلية من الطين والطوب اللّبن أسقفها مغطاة بأكوام من القش وأعواد القطن الجافة، كانت البيوت مُنسجمة مع الطبيعة والأشجار والنخيل ومع دخول عصر الانفتاح والهجرة إلى الخليج في نهاية السبعينيات، كنتُ شاهدًا على تحول البيوت بالتدريج إلى الطوب الأحمر، وأصبحت مثل المسخ، كان الناس لا ينقصهم أيّ شيء وباتوا يعتقدون أنَّه ينقصهم كل شيء.

***

مطار المنصورة لوحة هندسية استحوذت على قلبي، مؤلّف من ممرين رئيسين مُتساويين ومُتحاذيين وأربعة وعشرون دُشمة -مخبأ للطائرات-، موزعة على ست مجموعات، نصيب كل ممر ثلاث مجموعات من الدُشم، عند البداية والنهاية والمُنتصف، كل دشمة تتصل بممرها عن طريق ممر فرعي قصير، وأمام دُشم المُنتصف ممر قصير يربط بين الممرين الرئيسين.

الممرين توأم، الأول كأنه الثاني في المرآة.

الدُشم مُتشابه دون تغيير، باب يرى الممرين الرئيسين، وسقف يكوّن الرقم ثمانية، خرساني سميك، مغطي بكميات هائلة من الطّين حتى لا تخترقه القنابل أو الصواريخ، ومدخنة في الخلف، تسحب عادم الطائرة، ثم سلك شائك يفصل بين الدُشم والحقول الزراعية التي تحتضن المطار.

يحتجز السلك الشائك المطار كاملًا...

بعد أشهر قليلة من بداية حرب الاستنزاف، أعيد تمركز السّرب 16 وربح اسمًا جديدًا، السرب 46/اللّواء الجوّي 104، هاجر من مطار إنشاص إلى مطار المنصورة، أصبحت قائدَ ثانِ السّرب بعد مجدي كمال (قائد السّرب)، وكان السّرب اللّيلي الوحيد في مصر.

نزلت طائرات سّربي في دشم نهاية الممرين، كالفنادق، كل طائرة في غرفة (دشمة)، خلفنا قرية شاوة، فأخذنا اسم القرية، سّرب شاوة. أما سّرب الأمشوطي (السّرب 44) فسكن دشم البداية والاستراحة المُدشمة ناحية عزبة الأمشوطي، واحتلت طائرات الميج 17 (السّرب 62) دشم المُنتصف.

رفع الجميع شعار: «يا أهلًا بالمعارك، يا بخت مين يشارك، اطلب تلاقي، تلاتين مليون فدائي»، وغنت أم كلثوم «أصبح عندي الآن بُندقية»، وغناها فيما بعد عبد الوهاب.

***

20 يوليو/حزيران 1969.

قبل أنْ أقلع بالطائرة مُباشرة تم تلقيني الاتجاهات الموصلة إلى تجمع لطائرات إسرائيليّة شرق القناة، الطيران zero feet حتى القناة مع الالتزام بالصمت

اللاسلكي، ثم الارتفاع ومُحاولة اصطياد طائرة والعودة سريعًا دون الاشتباك، فيما يُعرف بـ الصيد الحُر؛ كنتُ أسميه؛ خطف طائرة في لمح البرق.

(في بعض الأحيان، يكون الصيد الحُر بطائرتين، ويتم تلقين الاتجاهات قبل الإقلاع مباشرة أو فور الإقلاع عبر اللاسلكي، وبعدها تبدأ فترة الصمت اللاسلكي حتى لا يكتشف العدو فريق الصيد.)

كنتُ قد سئمتُ تكرار الخروج للصيد والعودة بدون صيد، في الموقع، وجدتُ أمام أنف طائرتي قطيع من الطائرات الإسرائيلية، إحداهم شاردة عن القطيع، مُناسبة للافتراس ومُريحة لدرجة جعلتني لا أشعر بالأمان والطمأنينة، تسلّلتُ خلفها، وبينما كنتُ مُنكبًا على وضعها داخل دائرة التنشين هناك طائرتان خلفي تستعدان لشيء ما، هل كانت الطائرة الّتي أمامي طعم ابتلعته؟

لا أدري حتى اليوم.

«بص وراك قبل ما تضرب الطيارة اللي قدامك»، هذا ما كنتُ أقوله دائمًا للطيارين الجدد، نظرتُ في بيرسكوب القُمرة، وجدتُ طائرتين خلفي، على بعد خطوات، تحاولان ضبط مخالبهما في اتجاه عنقي، تأخرتا ثانية أو اثنين، أصبحت الطائرة الّتي أمامي في مرمى صواريخي، أطلقتُ صاروخ عليها، وقمتُ بمناورة ما قبل الموت، هربتُ من أمام الطائرتين، و أفلتُ من صاروخ إحداهما بأعجوبة.

أخذتُ طريق العودة، لم تُطاردني أيّ طائرة، فالطيارون الإسرائيليون يفضلون الاشتباكات المُدبرة، الكمائن والمصائد المُعدة مُسبقًا؛ وجيدة التخطيط.

هبطتُ على الممر، وكانت الطائرة بصاروخ واحد، سألني مُهندس: «أووماال فين الصاروخ التاني يا أفندم؟»، أخبرته أنني أطلقته على طائرة إسرائيلية، ولا أدري إنّ أصابها أم لا؟، أبلغ قائد السرب ودوّن ذلك في كتاب الطائرة (الشيت).

في نهاية عام 2012 توصّلت المجموعة 73 مؤرخين من خلال البحث في أرشيف سلاح الجو الإسرائيلي، إلى أنّ الطائرة الّتي أطلقت الصّاروخ عليها قد سقطت وقفز قائدها؛ إيتان بن إلياهو؛ بالمظلّة، كان الموت قريبًا منه جدًّا، لذا أظن أن قائد القوات الجويّة الإسرائيلية (ما بين أعوام 1978 و1990 تولى بن إلياهو المنصب) سيظل يتذكر طائرتي طوال حياته، لأنَّ عقول البشر مبرمجة على تذكر الأشياء الّتي تسبب صدمة عظيمة لهم أو الأشياء الّتي تؤثر على بقائهم في سباق الحياة.

إنّ كان ما حدث كمين لي، فقد وقع العكس تمامًا؛ ابتعلتُ الطعم وهربت.

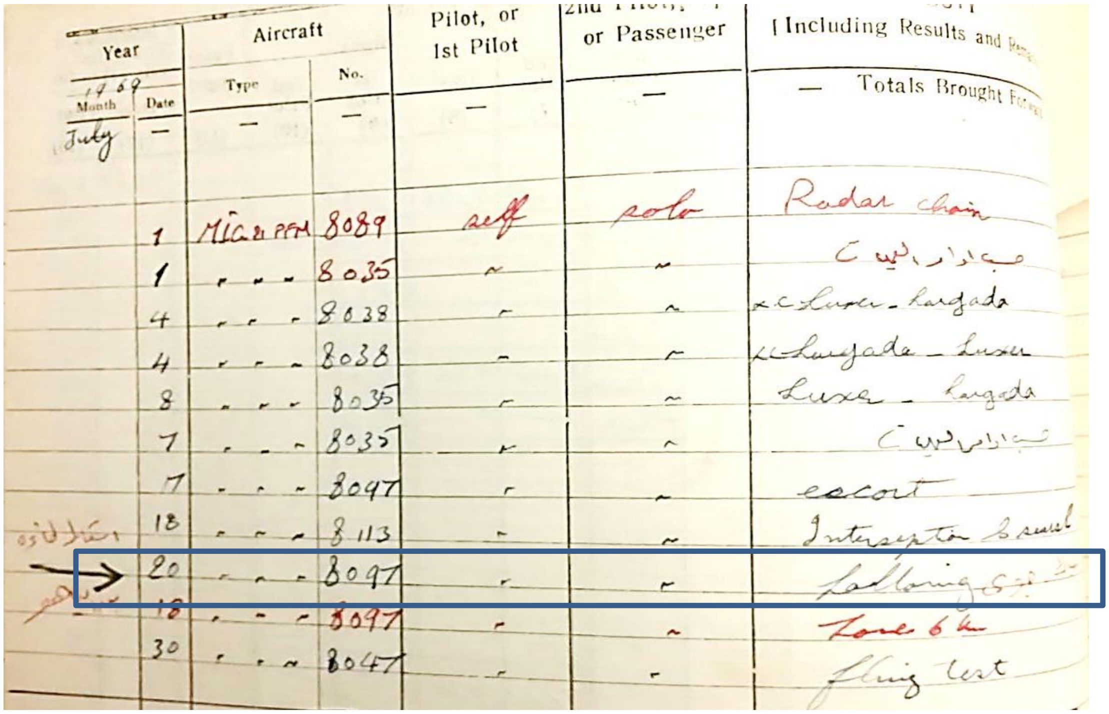

Year 1969 Month	Date	Aircraft Type	Aircraft No.	Pilot, or 1st Pilot	2nd Pilot, or Passenger	(Including Results and Remarks)
July	—	—	—	—	—	Totals Brought Forward
	1	MiG 21 PFM	8089	self	solo	Radar chain
	1	"	8035	"	"	[illegible]
	4	"	8038	"	"	Luxor - hurgada
	4	"	8038	"	"	hurgada - Luxor
	8	"	8035	"	"	Luxor - hurgada
	7	"	8035	"	"	[illegible]
	17	"	8047	"	"	escort
	18	"	8113	"	"	Interception [illegible]
	20	"	8097	"	"	[illegible]
	18	"	8097	"	"	Zone 6 km
	30	"	8047	"	"	flying test

من كتاب الطيران الخاص بي، توضح رقم الطائرة وتاريخ الاشتباك.

***

11 سبتمبر/أيلول 1969.

على الممر 340 تنتظر أربع طائرات ميج 17 محملة بالقنابل، وهناك أربع طائرات ميج 21 تصطف على الممر الجانبي. في تمام العاشرة والنصف صباحًا دوت خرطوشة إِسكرامبل فانطلقت طائرات الميج 17 في الهواء، بسرعة دخلت طائرات الميج 21 للممر الرئيس و أقلعت لحماية الميج 17، معي «مجدي كمال» و«رضا صقر» و«سليمان ضيف» (من جنيفا في بلد الغريب، السويس)، الطيران كالأباتشي على ارتفاع (zero feet) بخطى و اثقة حتى الهدف، وهو موقع صواريخ هوك مضادة للطائرات بين بالوظة ورمانة في سيناء.

وصلنا المكان المُتفق عليه، لم نجد شيئًا، لا آثر للصواريخ، وكل شيء هادئ، بتُّ مقتنعًا أنّ هناك خطأً ما، وأنّ الهدف يلعب معنا الاستغماية، وبينما كنا نبحث عن الهدف، نظرتُ خلفي، فوجئتُ بصاروخ ينطلق ناحيتي من الأرض خلفه سحابة من الرمال والغبار، وكأن دبوس صغير وكز قلبي، الحمد لله لم يكن الصاروخ موجهًا جيدًا، أنا محظوظ مثل عضو في مجلس قيادة الثورة يرضى عنه عبد الناصر. بالنسبة إليّ، مو اقع الصواريخ تُشبه الحيّات والعقارب، إنّ لم تقترب منها فلن تؤذيك، وإنّ اقتربت عليك أنّ تعرف جيدًا متى تلدغك؟

نطق الهدف وفضح نفسه، تبع ذلك صواريخ كثيرة دقيقة التوجيه خلفها عاصفة هائلة من الغبار، يستعرض الموقع قوته وعضلاته، أصبحنا في مأزق، تتبع ذيل طائرتي صاروخ لعين، رأيته في البيكرسكوب، فكّيه مفتوحين ويلتهم الفجوة بيننا بشراسة وسرعة هائلة، اقترب أكثر، قمتُ بمناورة حادة ناحية اليمين فقلدني بهمّة عالية، الحقير!!!، لن أدعك تقضم ذيل طائرتي، قمتُ بمناورة ثانية حادة وخاطفة ناحية اليسار، لم يكن بمقدوره أنّ يُقلدني، فشل،

فسرعته العالية وجناحيه القصيرين يُلجمانه عن القيام بمناورات حادة وسريعة، أكمل الصاروخ طريقه ناحية اللاشيء، ودعته، bye bye أتمنى ألا أرى وجهك الشَنيع مرة أخرى.

انفجر بعيدًا.

لإسكات الموقع، عادت طائرات الميج 17 ودكته بالقنابل قبل أنّ يُطلق المزيد نحونا، انفجارات متوازية، مع كل انفجار يصرخ قلبي من السعادة ويصرخ الهدف من الألم ويتهشم إلى شظايا صغيرة، ترتد إلينا وسط الرمال كالإعصار الهائج، وترتفع بقعة سوداء كبيرة تُشبه تجمع لمئات الجرذان.

أثناء العودة إلى مطار المنصورة، لم يكن عندي رغبة في الرجوع بدون صيد، تمهلتُ قليلًا، تقدمت الطائرات المصريّة ناحية قناة السويس وأصبحت بعيدة عني، سمعتُ المُرشد اللاسلكي (الموجّه) يُخبر «مجدي كمال» أنّ هناك طائرات ميراج مُعادية أقلعت من مطار المليز (المُحتل) وتتجه نحوه، وقتها قررت أنْ ألحق بالطائرات الميج. حينما وصلتُ كانت أمام أنف طائرتي طائرات ميراج إسرائيلية تحاول تدمير طائرات الميج المصرية من الخلف، والصواريخ تتطاير من كل ناحية تجاه الطائرات المصرية.

لم ينتبه أحد لوجودي.

الآن: أصبحتُ خلف طائرات الميراج مباشرة، في الهلمت (سماعة الرأس) دوت صافرة الصاروخ في أذني، تُغني، تعني الصافرة أنّ الصاروخ يُمسك الهدف جيدًا، شَعَّت طائرة إسرائيلية و أبرَقت أمامي، أطلقتُ الصاروخ، انقض عليها؛ قضمها بعدوانية؛ انفصل الذيل وخرت على الأرض ميتة، جريمة قائدها الأخيرة؛ أنه تركني أقتله. أطلقتُ صاروخًا آخر فلم يصب أحدًا.

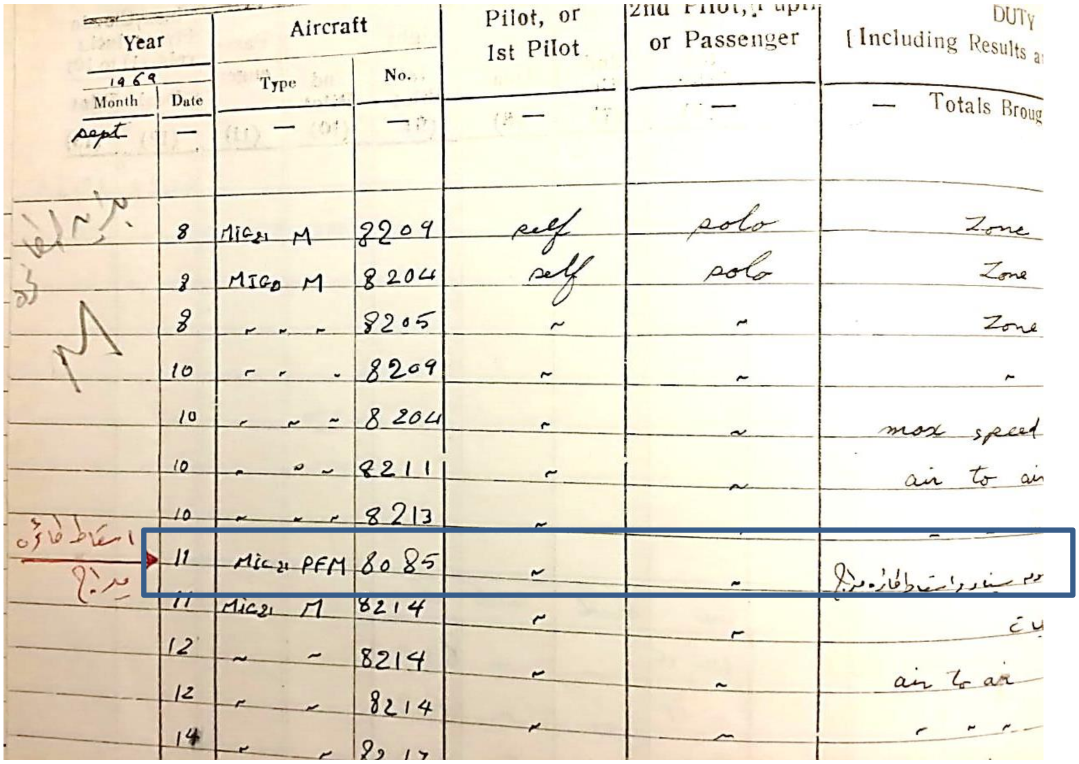

Year 1969 Month	Date	Aircraft Type	No.	Pilot, or 1st Pilot	2nd Pilot, Pupil or Passenger	DUTY (Including Results and Remarks)
sept	—	—	—	—	—	— Totals Brought
	8	MiG21 M	8209	self	solo	Zone
	8	MiG21 M	8204	self	solo	Zone
	8	"	8205	"	"	Zone
	10	"	8209	"	"	"
	10	"	8204	"	"	max speed
	10	"	8211	"	"	air to air
	10	"	8213	"		
	11	MiG21 PFM	8085	"	"	[illegible]
	11	MiG21 M	8214	"	"	[illegible]
	12	"	8214	"	"	
	12		8214	"	"	air to air
	14	"	[illegible]	"	"	"

من كتاب الطيران الخاص بي، توضح تاريخ الاشتباك ورقم الطائرة وإسقاط طائرة ميراج

***

بكى دايان، في نفس اليوم قامت الطائرات الإسرائيلية بالرد وهاجمت مطار المنصورة وظلت الاشتباكات في السّماء حتّى السّاعة الثامنة مساءً، فقفز سبعة طيارين بالمظلّات وأسقط مصطفى جامع طائرة سكاي هوك إسرائيلية فوق مدينة السنبلاوين، فقفز الطّيار بالمظلّة وكُسرت ساقه ونقل الأسير إلى مستشفى السنبلاوين.

حصلتُ على نوط الجمهورية العسكري من الطبقة الأوّلى، استلمتُ البراءة في مطار المنصورة ولم تعطني معارك حرب الاستنزاف الفرصة كي أذهب إلى رئاسة القوات الجوّيّة كي أستلم النوط، ولم أهتم بذلك، ولا أعرف رسمه حتى الآن.

***

يوم....

بعد أقل من دقيقتين أصبحتُ في السّماء، كانت العاشرة مساءً وظلام ليلة الثامن من نوفمبر/تشرين الثاني 1969 دامس ولا وجود للقمر، أقدر على تذكر التاريخ والوقت دون العودة إلى كتاب الطيران الخاص بي. حولت اللاسلكي على قناة العمليات، هناك تشويش على اللاسلكي وبالكاد سمعتُ صوت المُرشد اللاسلكي (الموجّه) وسط صوت أجراس الكنيسة المُرتفع، تم توجيهي إلى مدينة بورسعيد، وبعدي العجمي الّذي كان حالة ثانية.

«حسنًا، ماذا هناك؟»

قبل أن أصل بورسعيد رأيت وسط لجّة الظلّام شيئًا غير مألوف، نجوم كثيرة تسقط من السّماء في البحر، تبدو في عيني مشاعل تتوهج خلف قطعة شفافة من النسيج الأبيض، لا بُد أنَّ هناك طائرات تُلقي قنابل مُضيئة لترى شيئًا ما في البحر، قلتُ لنفسي: «يبدو أنها ليلة تختلف عن أخواتها».

تنطلق النيران من البحر وتنقض على المشاعل، فتسكت وتسقط ويسود ظلام دامس، وهكذا يبدو الأمر مثل لُعبة الهاتف الّتي تسقط فيها كرات وعليك أن تدمرها قبل أن تصل الأرض.

قمتُ بالاستعانة بالرادار لكنه كان مريضًا وبلا فائدة، قبل أن أصل موقع حفلة النجوم السّاقطة، زادت قوة التشويش على اللاسلكي، زادت قوة صوت أجراس الكنيسة، بصعوبة بالغة أستطيع سماع صوت المُرشد اللاسلكي (الموجّه) والعجمي، توقف سقوط المشاعل، تقدمتُ وسط الظلام حتى رمانة شرق بورسعيد، سمعت وسط أجراس الكنيسة صوت ضعيف جدًّا يطلب مني العودة إلى المطار، تمسّكتُ بالطريق؛ أكملت إلى البحر وبدأت أفتش السّماء بالرادار بحثًا عن طائرات للعدوّ.

فجأة ظهرت طائرة على شاشة الرادار، تابعتُ النقطة الّتي تتحرك على الشّاشة بسعادة، جذبتني كفتاة جميلة، توجهتُ ناحيتها، كان الظلام حالكًا ولا فرق بين السّماء والأرض، شعرت أنني أفقد ارتفاعي، دخلتُ حدود سيناء، رأيت كتابات بالمشاعل المضيئة على ساتر ترابي، بالتأكيد (67-56-48)، قصفتهم بأقبح الشتائم، ظهرت طائرة أخرى على شاشة الرادارواختفت في لمح البصر.

عدتُ إلى بورسعيد، تلاشت الأجراس، سمعتُ صوت العجمي بوضوح يقول لي: «يافندم الموجّه بيقولك ارجع».

حينما وصلتُ المطار علمت أن المدمرتين؛ الناصر ودمياط؛ كانتا تضربان مواقع شرق بورسعيد ومخازن وقود وأسلحة، وأن طائرات الفانتوم كانت تُلقي القنابل المُضيئة في المياه كي ترى المدمرتين، وأنَّ طائرات الفانتوم انسحبت بمجرد وصولي إلى مكان المشاعل وظهورالطائرة على شاشة الرادارالإسرائيلية.

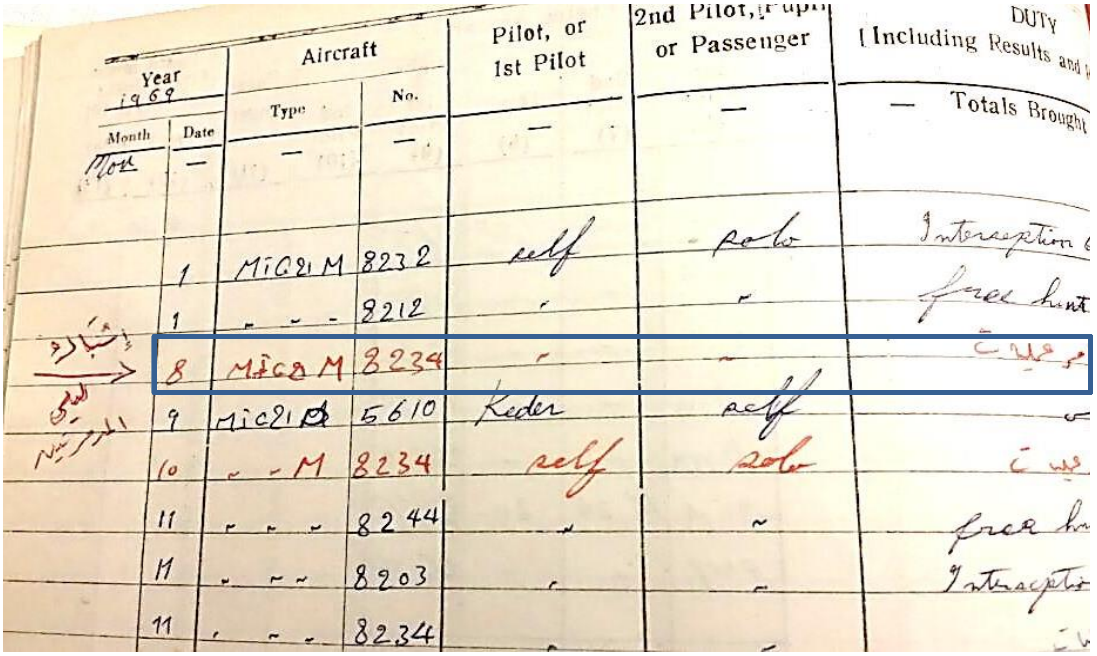

Year 1969 Month	Date	Aircraft Type	Aircraft No.	Pilot, or 1st Pilot	2nd Pilot, Pupil or Passenger	DUTY (Including Results and Remarks)
Nov	—	—	—	—	—	— Totals Brought
	1	MiG21 M	8232	self	solo	Interception
	1	- - -	8212	"	"	free hunt
	8	MiG21 M	8234	"	"	
	9	MiG21	5610	Keder	self	
	10	- - M	8234	self	solo	
	11	- - -	8244	"	"	free hu
	11	- - -	8203	"		Interceptio
	11	- - -	8234			

من كتاب الطيران الخاص بي، توضح اشتباك المدمرتين

بعد قليل، عادت طائرات الفانتوم مرة ثانية إلى ملاحقة المدمرتين، وبدأت في إلقاء المشاعل والانقضاض على المدمرتين تباعًا باستخدام القنابل.

قال مجد الدين في لقاء صحفي (أقلع لمساعدة المدمرتين في المرة الثانية): «ما أنّ تخطيت منطقة بالوظة حتى بهر عينَيّ استخدامٌ العدو لمشاعل قوة مليون شمعة لإضاءة أرض المعركة ورأيت الطائرات الفانتوم تنقض تباعًا على المدمرة، وقائدها يناور بها بمهارة حتى تصورت أنّ المدمرة قد انقلبت على جانبها».

نزلت النهاية بعد ساعتين، هربت المدمرتان إلى عمق البحر بدون خدوش، وذلك بدلًا من أنّ تسيرا بمحاذاة الشاطئ حيث لن يتمكن أيّ رادار بحري أو جوّي من التمييز بينها وبين إشارة الشاطئ.

***

استدعاني القدر للقاء مهمٍّ على رصيف حمام سباحة نادي الطيران، على حافة مصر الجديدة، ويبعد عن منزلنا قرابة عشر دقائق بالسيارة، الوقت تجاوز حر الظهيرة ولم يكن يشغل الرّصيف سوى القليل من الشماسي حسنة الترتيب، تُظلل طاولات تعانقها مقاعد فارغة، كانت ماجدة تجلس بجواري. «مساء الخير»، قالها الطاهي النوبي؛ عم بحر، وأخذ يرص أطباق المكرونة والسكلوب بانيه على الطّاولة، وهو أحد أبرز الوجوه في نادي الطيران، وجهه النوبي الطيب البشوش؛ والّذي يلبس الدهشة دائمًا، طوله الفارع، نحافته، بذلته الحمراء الأنيقة وخيوطها الذهبية، خليط يجذب الانتباه.

«والله يا أفندم من ساعة الحرب ما قامت، ماحدش من الطيارين عاد فاضي يجي هنا، وكل فترة نسمع الطيار الفلاني استشهد، نفضل نتكلم عنه يوم ولا اتنين لحد ما نسمع عن طيار تاني استشهد، ونتكلم عنه برضوا يومين لحد ما يوصلنا خبر التالت وهكذا، من ساعة الحرب ما قامت ماعندناش بنسمع أو نتكلم إلّا عن الموت...».

بينما كان عم بحر يتكلم أقبل عليّ؛ فوزي سلامة، وصافحني، الطّيار الصّالح لكل المهام، قاد التشكيل الذي أسقط أربع طائرات ميراج في كمين طليبة الشهير، وحش سرب الـ(f13) النهاري بمطار إنشاص، التهم وحده سبع طائرات ميراج خلال حرب الاستنزاف، كنتُ بين يديه كالتلميذ في حضرة مُعلمه، نفض رماد سيجارته وهو يخبرني عن إنشاء سرب النخبة على غرار السرب 101 الإسرائيلي، وسيضم أمهر الطّيارين المصريين، وقد اختارني في السرب، تلألأت عيناي، ناقش معي تمركز السّرب في أيّ مطار؟

أنا على موعد مع تغيير عظيم في حياتي، بسرعة، يجب أنّ أعد حقائبي وصواريخي للانضمام لسرب النخبة، ستكون أيامه ومعاركه الجوّيّة مُثيرة.

***

نقط نقطة وكتب فوقها بورسعيد، نقط نقطة أخرى بمحاذاتها وكتب فوقها السلوم، وصل بين النقطتين بالبحر المتوسط، في عمق البحر رسم طائرة بالخطوط المُستقيمة المتقاطعة، وكتب فوقها (U2)، Dragon Lady، ولمن لا يعرفها، فهي طائرة تجسس أمريكية متطورة جدًّا، تطير على ارتفاع شاهق يبلغ عشرين كيلومتر فوق سطح الأرض، لذا يرتدي قائدها بذلة الضغط العالي الّتي تشبه بذل رواد الفضاء، وسبق أن أسقط الاتحاد السوفيتي واحدة فوق أراضيه واعتقل قائدها.

أخبرني رئيس شعبة عمليات القوّات الجوّيّة أنّ هذه الطّائرة تُحلّق يوميًا ما بين السّاعة العاشرة والحادية عشر صباحًا، بمحاذاة الشواطئ المصرية، خارج المياه الإقليمية المصرية. اختارني بنفسه لمهمة إسقاطها في البحر، ستكون وجبة دسمة للسمك وضربة مؤلمة للمخابرات المركزيّة الأمريكيّة.

لن أنسى أبدًا ليلة الـ U2، رماديّة وريحها فاترة وكئيبة، لم أستطع خنق صوت الاحتمالات، كنتُ أسيرًا لها و اقتادتني إلى مناطق مُظلمة، هل سيتركني الأسطول السّادس الأمريكي الرابض في البحر المتوسط أقضم التفاحة و أُنفّذ بجريمتي؟ هل ستهرع طائرات الفانتوم من حاملة طائرات قريبة لإنقاذ الـ U2؟، قد أجد نفسي فجأة وجها لوجه مع حشد من طائرات الفانتوم الّتي لا تحمل قلبًا وخارجة عن المألوف في عالم الطيران الحربي، حتى إن سقطتُ في بحر لا نهائي سيكون الأمريكان الأقرب إليّ، جميع سيناريوهات هذا اللّقاء فوق المياه الدوليّة مُرعبة، ليس بالضرورة أن أعود، سميّتُ المهمة في دفتر ملاحظاتي «اصطياد شبح المتوسط».

في الصباح، كنتُ في انتظار الـ U2 داخل قمرة الطّائرة، حالة أولى، أرتدي بذلة طيران الارتفاعات الشاهقة، بذلة خانقة والجو جحيم داخل الدشمة، ربما تظهر الـ U2 بعد ساعة، أو أقل وربما لسبب ما لا تخرج للعمل اليوم، لكن بمجرد أن تلتقطها شاشات الرادار المصريّة، سيتم توجيهي عموديّا على مسارها، بحيث ألتقي معها في نقطة داخل المياه الدوليّة، وأدمرها بصاروخين.

طبقا لساعة الطائرة، العاشرة وخمس وثلاثون دقيقة، قُضي الأمر، فتُح باب الدشمة، دخل نور الشمس، خرجت الميج 21 من الصندوق، تم توجيهي لاسلكيّا إلى البحر المتوسط، من ناحية بحيرة البُرلس، على ارتفاع 13 كيلومتر من سطح الأرض، وكان الموجّه الأرضي يذوّدني بارتفاع وسرعة الطائرة المُعادية، لا شيء تغيّر. قرب البحر المتوسط، بدأت أنحدر بالطائرة بزاوية خفيفة مع استخدام أقصى قُدرة للمحرك، هبطت إلى ارتفاع 11 كيلو متر من سطح الأرض لتصل السرعة إلى 2 ماخ (2450 كيلومتر في الساعة)، ثم بدأت أتسلق الهواء بزاوية مُتوسطة حتى وصلتُ إلى ارتفاع 20 كيلومتر فوق سطح الأرض (الطريقة الوحيدة للوصول إلى ارتفاع 20 كم بطائرة ميج 21)، توغلتُ في البحر، السُحب أسفل مني، متفاوتة القمم تشبه البحر الموار، والسّماء صافية والرؤية واضحة و أقترب من الهدف بسرعة عالية، وكلما اقتربت من الهدف تعاظم ظهور طائرات الفانتوم في أيّ لحظة ومن أيّ جهة، بطلتها المُرعبة وجناحيها المُخيفين، تابعتُ على الدوام البيرسكوب (مرآة في قمرة الطائرة) لاكتشاف أيّ طائرة قد تكون تسللّت خلفي خلسة، كنتُ أخشى أن أُصطاد على حين غرّة أكثر مما يجب.

بالتأكيد في تلك اللحظة هناك عدد محدود من الجمهور، يقفون على أقدامهم في غرفة العمليات، صامتين، مُتحمسين، وجوههم مُنصبة على شاشة الرادار،

يشاهدونني نقطة تقترب من الهدف، وكلما اقتربتُ قرّب كل واحدٍ فيهم المسافة بين كفيّه وهيأهما للتصفيق.

ها أنا أقترب و أقترب، أشعر بقشعريرة الكاميرا في مُقدمة الطائرة وهي تتهيأ لتسجيل تلك اللحظة الّتي لا تتكرر إلّا مرة واحدة في عُمرها، تبدأ العمل بمجرد تحرير الصاروخ من المخزن أسفل جناح الطائرة راكضًا بكل قوة وسرعة ناحية الهدف.

تقاطعتُ مع مسار طائرة التجسس الأمريكيّة U2، كنتُ أتوق لرؤيتها، حركتُ رأسي في الاتجاهات الممكنة لكني لم أعثر عليها، أين اختفت؟، أخبرني المُرشد اللاسلكي (الموجّه) أنها تجاوزت نقطة الالتقاء، رغم أن سرعتها بطيئة.

أفلتت اليوم، لكنها في اليوم التالي بالتأكيد لن تفلت، سنكون أكثر دقة في حساب الوقت والمسافات والسرعات.

قضينا جزءًا مِن اللّيل في النقاش والتجهيز لإعادة المحاولة في الصباح، طرحتُ سؤالًا على الحاضرين: «هل رصد الأمريكان طائرتي وتم تحذير قائد الـ U2 أم أن ما حدث خطأ في الحساب من ناحيتنا؟»، على العموم بالتأكيد تنبه الأمريكان إلى أن الـ U2 في خطر، فجأة، هبت فكرة مزعجة داخل عقلي، الكمين، فلو كنتُ مكان الأمريكان لاستخدمت الـ U2 في صنع كمين، حينما أصبحتُ وحيدًا في الاستراحة تبادلتُ الأدوار مع الأمريكان وأخذتُ أضع سيناريوهات الكمين.

في الصباح، جلستُ في قُمرة الطّائرة، حالة أولى، بصعوبة طردتُ فكرة الكمين من ذهني، قررتُ توظيف أفكاري في تزويدي بطاقة إيجابية ورفع روحي المعنويّة، يمر الوقت ببطء في ساعة الطّائرة، التاسعة والنصف، يتسكع، يزحف نحو

العاشرة، يتراءى لي أشياء حدثت وربما لم تحدث، على سطح حاملة طائرات أمريكيّة في عرض البحر المتوسط، المياه تموج من كل ناحية والأمور تسير على ما يُرام، الآن (ربما) يُعيد القائد بناء سيناريو الكمين للمرّة الأخيرة ويطمئن أن كل طيّار يعرف جيدًا ما يجب عليه فعله، حتى التفاصيل الصغيرة، لحظات وتخرج الـU2 لإغراء الضحيّة.

انتظرتها ثلاث أو أربع صباحات مُتتالية، لكنها لم تخرج للعمل، وتوقفت نهائيًا عن التجسس.

***

ثمة لذّة أشعربها في مخالفة أوامر الطيران، وذلك صنع شُهرتي. قيل إنني دخلتُ نفق بطائرة ميج وخرجتُ من الناحية الأخرى، كان ذلك كذبًا فأنا فقط كنتُ أعبر بالطائرة من أسفل جسر فوق النيل يربط مدينة المنصورة بطلخا، ويكاد بطن الطائرة يلمس المياه.

أرجو، ألا يقلدني أحد فإنها مغامرة حقًا مميتة.

***

ذات صباح، دُعيتُ هاتفيًا إلى قاعة مُحاضرات اللّواء، في انتظاري رئيس شعبة التدريب بالقوات الجوّيّة اللّواء عبد العزيز بدر، قدمتُ له التحيّة العسكريّة، وصافحته، أشار إليّ أنْ أجلس على ضفة المنضدة الأخرى، نهض و اقفًا، اقترب مني حتى كدت أسمع صوت أنفاسه، فرد الخريطة أمامي، وضع أصبعه فوق مدينة على البحر المتوسط، مسحت عيني موقع المدينة، الضبعة بين الإسكندرية ومرسى مطروح، فردتُ ظهري، سندتُ بيدي على مقعد بجواري، للحظة فكرتُ في هذا الهدف الغريب، ترك اللّواء الخريطة فلفّت نفسها

بنفسها، وضعتُ يدي عليها فتوقفت عن التدحرج، تحرك بعيدًا، جلس وقال: «هتعمل طلعة تجربة بأقصى حمولة للميج 21، وهيكون خط السير: المنصورة-الإسكندرية-الضبعة، تروح ترمي قنبلتين في البحر وتعمل اشتباك وهمي وترجع تاني».

«امتى يا أفندم؟»

«بعد ساعتين، أنا بلغتهم أول ما وصلت يجهزوا طيارة ميج بأقصى حمولة».

أذن لي أنّ أسأله عن مصير سرب النخبة، أخبرني أنّ قيادة القوّات الجويّة ترى أنه لا ضرورة له في هذا الوقت، شعر بصدمتي فاقترب ووضع يده فوق كتفي.

«يا أفندم رغبتي في الانضمام لسرب النخبة بتخليني أجتهد في شغلي.»

طيّب خاطري قائلًا: «الطيار الجيّد والشجاع هو اللي بيصنع السرب الجيد مش العكس، و أنت طيار جيد يا سمير».

داخل استراحة الطوارئ، فتحتُ الخريطة، كنتُ أنتقل من موقع مدينة إلى أخرى، بحثًا عن الهدف الأساسي، خط السيرِ يبدأ من مطار المنصورة، بعد ذلك يُمكن استبدال الإسكندرية ببورسعيد والضبعة بيافا، وبذلك يكون خط السير الأساسي: المنصورة- بورسعيد- يافا، الهدف الأساسي مدينة يافا بالقرب من تل أبيب، بالتأكيد ذلك ردًا على ضرب الطيران الإسرائيلي العُمق المصري، مفاجأة لي، فلم يسبق أن توغلت الميج إلى هذا العُمق داخل إسرائيل، إنها رحلة ذهاب فقط، فكرتُ في كم الطّائرات والصواريخ الّتي ستهرع لاعتراض طائرة مصريّة تقترب من تل أبيب!!، دوّنتُ ملاحظاتي على المهمة في دفتر ملاحظاتي تحت عنوان: «قُبلتان لامرأة في آخر العالم».

لم أنتبه لوجود اللّواء عبد العزيز بدر بجواري.

توجهتُ إليه بالسؤال: «يا أفندم، هيا الطلعة الأساسية ليافا؟»

هناك طنين للطائرات في الخارج يصم الآذان، اختلط مع صوتي، انتظر اللّواء حتى سكتت الطائرات، قال منزعجًا ومراوغًا: «إنت عارف هتعمل إيه؟»، كانت كلماته قاطعة وسريعة كالسيف.

أجبت بحزم: «تمام، يا أفندم».

داخل الدشمة رقم اثنين، تم تحميل طائرة ميج 21 بأقصى حمولة، ثلاثة خزانات وقود، وقنبلتين كل واحدة ربع طن، صعدتُ سلم الطائرة، جلستُ على المقعد، أصبحتُ الآن جاهزًا للانطلاق، فُتح باب الدشمة، سحبتُ غطاء الكابينة بيدي وأغلقتها، دفعتُ مقبض غلق الكابينة، شغلتُ المُحرك و اتجهتُ ناحية الممر.

طبقًا لخطة العمل، التحليق طوال الرحلة بارتفاع (Zero Feet) بحذر شديد لأن الطّائرة محشوة بنصف طن مُتفجرات (قنبلتين) وتبعد عن سطح الأرض أمتار قليلة، أيّ خطأ ولو تافه سيختل توازنها وتصطدم بالأرض في أقل من لحظة، كما أنَّ القنبلتين ستنفجران غضبًا في وجهي ومعهما ثلاثة خزانات وقود تبتلع 1800 لتر جاز أبيض، الأسوأ من احتراق المرء حيًّا داخل طائرة باهظة الثمن، هو أن يظل بعدها على قيد الحياة، مشوهًا على الأقل، الجيد في الأمر أنَّ المرء إما أن يتفتت ويموت أو يظل حيّا، ليس هناك وسط. يمكنني تبسيّط ما سبق في ست كلمات «الطائرة قنبلة موقوتة لأبسط الأخطاء».

خط السير يبدأ من المنصورة إلى الإسكندرية (نقطة في مُنتصف الرحلة)، الطيران بمحاذاة البحر حتى الضبعة مرورًا فوق معركة العلمين ومقابر الكومنولث الشاهدة على أشرس معارك الحرب العالمية الثانية، قرب الهدف

(مياه البحر)، الارتفاع لأكثر من كيلومتر ودك الهدف بالقنبلتين أثناء الانقضاض عليه، يلي ذلك اشتباك وهمي لدقيقتين بـ «الافتر بنر»، والعودة (Zero Feet) في نفس المسار.

على مرَّ جميع الأزمنة، لم يتغير سلوك أهل الأرض حينما يكتشفون طائرة تطير قريبًا من رُءوسهم، فالجميع يعرفون صوت الطائرة، لا يهم منّ يُحركها!! يتركون كل شيء ويتفرجون عليها، حتى طائرات الأعداء والتي يعرفون أنَّها أتت لأخذ أرواحهم، أما الأطفال فيلوحون إليها، يتابعونها حتّى تبتعد وتُصبح نقطة وسط زُرقة السّماء. ذلك ما حدث مع طائرتي في ذلك اليوم.

حينما لمست عجلات الطائرة الممر، شعرتُ أنّ المهمة استهلكت على محور الزمن وقتًا يعادل قلب صفحة في كتاب بتأني، حتى أنه (ربّما) الهواء ما زال معبأ بعادم الطّائرة حينما صعدت إلى السّماء، نظرتُ إلى مؤشر الوقود فور أنّ أوقفت المظلّة الخلفية الطائرة فوق الممر، يُشبه مؤشر وقود السيارات، غير أنّ كل شرطة تعني مائتي لتر، كان العقرب يُشير إلى أنّه تبقى في جوف الطائرة نحو 1200 لتر، هذا رااااائع، فالحد المسموح به 600 لتر، لكننا كثيرًا ما كنا نعود بوقود أقل من عتبة حد السماح، وبعد أنّ تومض لمبة الوقود الحمراء بمدة طويلة.

أصبحت تل أبيب في خطر.

***

بدأت قصة هذا الكتاب قرب السّاعة الثانية عشر من ليل أحد أيام شتاء عام 2017، بقي دقائق قليلة على ميلاد يوم جديد، ليلة رومانسية بلا أثر لصوت أو ضوء، تشبه ليالي سنوات الحرب مع إسرائيل، بسبب التعتيم هناك صمت

ضوئي. بإيعاز من هايدي قررتُ نشر قصتي مع الميج 21، أردتُ أن تكون للجميع، وقعتُ فيما أسمّيه؛ حيرة شجر الجنة، الحديث في أمور فنية مثل الصواريخ وشروط إطلاقها، سرعات الطيران، الارتفاعات وقواعد المناورات الجوّيّة وغيرها يُفجّر ترسانة هائلة من الضيق والملل في صدر القارئ، لذا قررت (قدر المُستطاع) تجنب الدخول في أمور فنية، معادلة صعبة فكيف يُلقي عالم فلك مُحاضرة دون أن يذكر فيها الشّمس والقمر وقانون الجاذبية!!!

الحكاية التالية بذلتُ مجهودًا كبيرًا في تلاشي الولوج في أمور فنية.

في يوم من أيام صيف 1970، وبعدما تلاشت آمالي في قصف تل أبيب أو حتى تسلق أسوارها، كنتُ قائد تشكيل (أربع طائرات)، في دوريّة غرب مدينة الأشباح المُرحّل أهلها والمدمرة، بورسعيد. معي؛ «رضا إسكندر»، «وصفي بشارة»، «مجد الدين رفعت». نتحرك شمالًا وجنوبًا بسرعة أقل من واحد ماخ للتقليل من استهلاك الوقود، أثناء ذلك أبلغنا المُرشد اللاسلكي (الموجّه) بأنّ هناك طائرتين فانتوم إسرائيليتين تتجهان نحونا بسرعة 1.5 ماخ. أمرنا الموجّه بتجنب الاشتباك والعودة إلى مطار المنصورة: «خذوا اتجاه 270».

أمرتُ التشكيل بالتوجه إلى الفانتوم والاستعداد للاشتباك، «خذوا اتجاه 90»، أخذ المُرشد اللاسلكي يصرخ ويكرّر طلب تجنب الاشتباك والعودة إلى المطار. حسمتُ الأمر، وكررت أوامري للتشكيل.

أحسنتُ صنعًا، لأن الفانتوم تطير بسرعة عالية، وحينما نهرب ستكون خلفنا خلال ثوانٍ معدودة، وحينها تستطيع ضربنا من الخلف بصواريخها المتطورة.

تخطينا تشكيل الفانتوم من أعلى، وقمنا بالدوران يسارًا للدخول خلفه، لم نلذ بالفرار وتصرفنا على نحو غير مُتوقع للفانتوم، حينما تأكد قائد التشكيل من

إصرارنا على المواجهة، قرر الانسحاب، لكنني أصبحتُ خلف طائرة فانتوم. فجأة، تخطى وصفي (رقم 3) طائرتي وأصبح أمامي وخلف الفانتوم، ارتفعتُ إلى أعلى كي أحمي ظهره، أطلق وصفي صاروخ عليها فانفجرت، وبخته في اللاسلكي لأنَّه خطفها من أمامي، أطلق مجد الدين صاروخ آخر فدخل وسط الانفجار.

ركضت الفانتوم الثانية هاربة مثل كلب الصيد.

في صباح اليوم التالي كنت حالة طوارئ أولى، حضر قائد السرب إلى الدُشمة، يتصبب عرقًا، أخبرني أنّ كبير الخبراء الروس في القوّات الجويّة في قاعة مُحاضرات اللّواء، اعتقدتُ أنه جاء للاحتفال معنا بسقوط الفانتوم، بجانب ذلك زارني إحساس بضرورة عدم استباق أسباب زيارة الرّجل المُهم خصوصًا وأن الخبراء الروس ليسوا ودودين لهذه الدرجة، تسلم أحد الطيارين حالة الطوارئ مكاني، وأمام باب الدشمة كانت تنتظر سيارة جيب روسي (نظرًا لاتساع المطار، نستخدم سيارة للتنقل بداخله).

انطلق السّائق مُتعجلًا على الممر الفرعي، بينما طائرة ميج تفرد مظلتها الخلفية كي تتوقف فوق الممر الرئيس.

تجولت عيني في قاعة المُحاضرات، جلستُ بجوار رضا إسكندر، أمامنا كبير الخبراء الروس ومُترجم ورجل ينسخ ما نتكلم به على آلة كاتبة أمامه، سردتُ ما حدث بصفتي قائد التشكيل الّذي أسقط الفانتوم، وسرد وصفي بالتفصيل كيف أسقط الفانتوم؟، أسوأ ما في الأمر أنني شعرتُ أنّ كبير الخبراء الروس يستجوبنا ويشكك فيما حدث، وللأسف لم يكن هناك أفلام للتصوير على الطائرة لتسجيل وتوثيق ما حدث.

في النهاية أخبرنا كبير الخبراء الروس عبر المُترجم أنه يُريد عجلة، قلتُ لنفسي: «إيه الهبل ده؟»

يقصد عجلة من عجلات الفانتوم المنكوبة، يُريدٌ دليلًا.

***

قبل عبد الناصر مُبادرة روجرز لوقف إطلاق النار، وفي الثامن من أغسطس/آب 1970 دخلت الهدنة حيز التنفيذ، صمتت المدافع بطول قناة السويس، توقفت العمليات على الجبهة، لن يهم آخر جندي استشهد قبل الهدنة، فبالتأكيد لن يكون الأخير.

انتهت أيام شدة لن أنساها.

بدأت فترة الكساد الكبير، تدربنا في انتظار جذب فتيل الحرب مرة أخرى فكما قال عبد الناصر: «ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلّا بالقوة»، أما موسوليني[1] فكان أدق حينما قال: «حتى لو قُدمت لي البلاد على طبق من فضة، فإنني لن أدخلها إلّا بالحرب».

***

[1] بينيتو موسوليني؛ حاكم إيطاليا ما بين أعوام 1922 إلى 1943، ومؤسس الحركة الفاشية الإيطالية، وكان يتحدث عن أثيوبيا حينما قال ذلك.

مطار المنصورة – السرب 46 قتال، اللواء الجوي 104

بوم.

بدون سابق إنذار، أوقفت الإذاعة برامجها وكذلك التلفاز، وبدلًا منها أخذت جميع المحطات تبث القرآن الكريم باستمرار، كان واضحًا مثل السّماء في الصيف أنّ شيئًا مهمًّا حرّك الرّمال السّاكنة وأجبرهم أنّ يوقفوا له الزمن، يوم الثامن والعشرين من سبتمبر/أيلول 1970. لم أطق الانتظار، أحضرتُ مذياع إلى استراحة الطوارئ، انتشر القلق ولم يخمد لهيب بالونة احتمالات انفجرت، ماذا حدث؟ هل قتل ياسر عرفات[1] الملك حسين (حينما كنتُ أرى الأخير على شاشة التلفاز أو أقرأ اسمه في الصُحف يتبادر إلى ذهني أنّه يجب أنّ يتأكد المرء أنّه يُطلق النّار على عدوه حقًا، فلربما يكون صديق أحق بالرصاصة، وكلّ من يتعاون مع العدو يستحق الموت)، هل قتل عرفات الملك حسين بسبب أحداث ما بات يُعرف في الذاكرة الفلسطينية بـ«أيلول الأسود[2]»، أم العكس، أم عبرت إسرائيل القناة؟

لم يكن أحد يجرؤ على التفكير في أنّه مات، وليغفر الله لرئيس وزراء الصين حينما قال لأحد الأطباء «كيف سمحتم له أنْ يموت؟»

مات الرجل الذي لم يكن الناس يجرءون على نطق اسمه في الحافلات أو حتى في بيوت مغلقة بسبعة أقفال، وإنّ حدث كانت الألسنة ترتجف خوفًا من الذهاب خلف الشّمس. مات الرّجل الذي منع من أجل الله «أولاد حارتنا[3]»

---

[1] مُناضل فلسطيني ضد الاحتلال الإسرائيلي.

[2] قتال نشب في الأردن بين الجيش الأردني ومنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات.

[3] رواية من تأليف الكاتب المصري نجيب محفوظ، والحائز على جائزة نوبل للآداب في العام 1988.

و«الإنسان والله[1]» وفي نفس الوقت جعل للشيوعين أيدي ودبابات وطائرات في مصر. مات الرّجل الّذي أطلق الرصاص على مملكة الإنجليز وأخرجهم من مصر ولكن (كما قال الدكتور مصطفى محمود) عاد مكانهم اليهود.

مات عبد الناصر، مات على خشبة المسرح، أصبحنا أيتامًا، عرفتُ الخبر من المذياع مثل الجميع، استمعتُ إلى بيان السادات و أنا في الاستراحة: «فقدت الجمهورية العربية المتحدة وفقدت الأمة العربية وفقدت الإنسانية كلها رجلًا من أغنى الرّجال (سمعتها هكذا، كرر السادات، من أغلى الرّجال) وأشجع الرّجال وأخلص الرّجال....»

بين الفينة والأخرى كنتُ أسمع صراخ حول السادات، وما أن فرغ من قراءة البيان حتى تحدثتُ إلى نفسي مثل قليلي العقل، هل السادات متأكد مما قال؟، أليست الحياة ممتدة أمام رؤساء وملوك العرب إلى مالانهاية؟!! كنتُ مذهولًا رغم أنّ يومياتي مليئة بحكايات الموت (فلان استشهد- يااااه – طب شيش ياك)، إنّه الصديق الوفي، لا يأتي متأخرًا، يسكن معنا، ير اقبنا وير افقنا كل يوم في رحلاتنا الجوية، وببساطة حينما يسرق طيّار من بيننا يحل مكانه آخر في اليوم التالي، فالحياة لا تتوقف عن الدوران عند موت أحد، وكما يقول النصف الثاني من شعار محارب الساموراي «موت الجندي خفيف كالرّيشة».

رحل عبد الناصر إذًا ولم يستطع قلم هيكل[2] (وزير الإرشاد) أو البوليس السياسي أن يُضيفا إلى عمره نفسًا، لكنه كما قال جيلبرت سينويه[3]: «والحقيقة أن عبد الناصر كان ميتًا منذ الخامس من يونيو/ حزيران 1967»

---

[1] كتاب من تأليف الدكتور مصطفى محمود، وصف بأنّه رحلة للبحث عن الله.

[2] محمد حسنين هيكل، صحافيّ مصري، تربطه صداقة بالرئيس عبد الناصر.

[3] كاتب فرنسي ولد في مصر عام 1947 وغادر القاهرة وهو بعمر التاسعة عشر.

(قال ذلك أيضًا السادات في: البحث عن الذات). خسر عبد الناصر السباق؛ لأن الجواد الّذي يسقط مرة في سباق لن يربحه إلّا بمعجزة.

خرجتُ في الهواء والتقطتُ أنفاسي، توقفتُ بعد عدة خطوات، ملئت الكآبة الهواء ولفّت كل شيء بإحكام، الطائرات، الممرات، الدشم واستراحة الطوارئ. في طريقي إلى خلوتي الليليّة القصيرة كان أول قادم أحد الميكانيكيّة، يرتدي أفرولًا كاكي، قلتُ له: «عبد الناصر مات».

قال باستغرب وهو يلف كفه نصف دورة: «عبد الناصر مين؟»

«الريس.»

«يا أفندم قول كلام غيرده، مُستحيل.»

و انصرف وهو لا يُصدقني.

اتصلتُ بأمي فوجدتها حزينة، وتأكدتُ من الخبر مرة ثانية، أخبرتني أن الناس لم تتقبل أن يموت الرّجل دون مُقدمات وسبب واضح، الناس تملأ الشوارع، وهدير الحشود يتصاعد «ابكي ابكي يا عروبة على اللي بناكِ طوبة طوبة».

وفي يوم الوداع (حسب لسان صحيفة الأخبار) احتل أبناء الدلتا والصعيد القاهرة وتوقفت عن العمل، أغلقت المحلات أبوابها، امتلأت الشّوارع، لُفّ الجثمان بعلم الجمهوريّة العربيّة المتحدة ووضع داخل مروحية طافت سّماء القاهرة، وبدأت جنازة رسميّة وشعبيّة مهيبة من أمام مجلس قيادة الثورة في جزيرة الزمالك، صلى عليه الشيخ محمد الفحام (شيخ الجامع الأزهر) في مسجد ناصر، ودفن فيه.

عليّ الانتظار أسابيع كي أعود إلى القاهرة، أهلي وبيتي. وبعد أسابيع؛ ما زال الحُزن يُغطيها، وواجهات العمارات تكسوها بالطول قطع سوداء من القماش

والمحلات تُعلق صور للريّس ولافتات عليها رثاء ووعود أننا سنظل على العهد، ذهبت مع صديق إلى منشية البكري لتقديم العزاء إلى خالد عبد الناصر، كان صديقي يومًا ما.

تُجدد أمي موضوع الزواج باستمرار خلال الإجازات والأحاديث الهاتفية القليلة، شرحتُ لها (كما في كل إجازة) قائلًا: «يُمكن أنّ يتمكن مني الموت في أيّ وقت، ثم أنني أشفق على المسكينة الّتي سأتزوجها، فالزواج من طيّار أثناء الحرب بمثابة عذاب دائم».

***

«أقسم بالله العظيم أنّ أحافظ مُخلصًا على النظام الجمهوري، وأنّ أحترم الدستور والقانون وأنّ أرعي مصالح الشعب رعاية كاملة...».

بتلك الكلمات أصبح السادات رئيسًا، أقسم اليمين من ورقة وذهب إلى صورة لعبد الناصر و انحنى أمامها، لكن الرئيس الشرفي كان تحت وصاية «شعراوي جمعة» و«علي صبري» و«حسين الشافعي» و«سامي شرف» و«زكريا محي الدين» ومن أسماهم أبي: نباتات النظام المتسلقة.

على مائدة الطعام قال أبي: «هيروح فين السادات وسط دوول!!، ده لو كمل سنة يبقى حلو أووي». فتحت أمي موضوع زواجي، قلتُ لها إنْ تقبل شركة مصر للتأمين التأمين على حياتي، فسأتزوج فورًا. بالطبع لا تقبل أيّ شركة تأمين بيع شهادات التأمين على الحياة لمحارب.

قال أبي، إذا أردت أن تكون راهبًا، فلتترك الحياة وتذهب إلى الدير وتختر مُعلمًا، لكن لا تعش نصف راهب.

لا يعلم أحد أنّي أبرمت اتفاقًا مع نفسي: «ألّا أتزوج إلّا حينما تضع الحرب أوزارها».

استمر السادات في الزحف بجانب الحائط وتسلق هرم السُلطة ليلًا، تزلق قدمه فيمسك بأظافره وأسنانه ويعاود الصعود مرة أخرى، أثناء ذلك زارنا في مطار المنصورة، كانت التجهيزات متواضعة ولا تليق بزيارة رئيس الجمهورية، وقيل لنا إن سألكم السادات (هكذا بدون كلمة الرئيس لأن القيادات تؤمن أنّه لن يمكث في الرئاسة كثيرًا)، قيل لنا إنّ سألكم السادات: «هل أنتم جاهزون للحرب؟»، قولوا: «لا» بملء الفم (لغلق جميع النو افذ أمامه)، لم أفصح لأحد عما كنتُ أفكر فيه.

داخل إحدى الدشم، جلس السادات بين قائد القوّات الجوّيّة وقائد اللّواء، خلف منضدة طويلة سقفها مُغطى بقطعة قماش تشبه ملاءة السرير، جلس الطيارون على مقاعد أمام منضدة السادات مُباشرة. رجلًا قويًّا ومُتزنًا عكس ما يُقال (مُهرّج، يُميتنا من الضحك)، قاتم الوجه أكثر مما كنتُ أتوقع، له شارب، أنيق، يرتدي معطفًا أسود طويلا وقميصا أبيض ونظارة شمسيّة، صوته مميز تستطيع استخراجه وسط آلاف، متواضع أكثر مما ينبغي (سيتغير تدريجيًا). شرح الوضع الدولي والداخلي وموقفه من الاتحاد السوفيتي، وسألنا: «هل أنتم جاهزون للحرب؟»، وقبل أن ينطق أحد قلت: «نعم، سيادة الرئيس»، نظر الجميع إليّ بدهشة (قائد القوّات الجويّة، قائد اللّواء، قائد السرب، والطيّارين)، أكملت: «لكن نريد بعض الأشياء أولًا»، قال السادات باهتمام وسرور: «ما هي؟»

«نريد طائرات تصل إلى عمق إسر ائيل، وأجهزة رادار حديثة، نريد سيطرة جوّيّة فبدونها من المستحيل النصر في الحرب».

قدمتُ له قائمة طويلة من المطالب. قال السادات إنّ الحرب ستكون بما تمتلكه القوات المُسلّحة من إمكانيات وعتاد.

بعدما غادر السادات وبخني قائد اللّواء بشدّة.

***

القطّة الضعيفة الّتي وضعت صغارها فوق سطح عمارتنا انبعثت منها قوة هائلة، وتحولت إلى ذئب كاد أن يمزق وجهي حينما حاولتُ الاقتراب من أطفالها، فهي لا تمانع من أذيتها أما أطفالها فتدافع عنهم حتى نهايتها، نظرت القطّة إليّ بوحشية تمتزج في ذهني مع زوجة تحمل صينية الطعام فوق رأسها إلى زوجها في الغيط بجوار المطار، وتجلس لتأكل معه، يضع اللّقمة في فمها، يتكرر ذلك المشهد أمام عيني كل ظهيرة خلف السلك الشائك. تطلعت بشغف لمثل تلك اللحظة وبدأت أراجع نفسي، أحسست بتقدمي في العمر وأدركتُ أنّه من المستحيل أن أقضي حياتي هكذا، ولكن...

أثناء الحروب هناك حفنة من المحاربين يكون في انتظار عودتهم أطفال وزوجات، مثل «هشام كامل»، تُوفِّي أثناء حرب الاستنزاف، إقلاع بالطائرة ليلا (كنا السرب اللّيلي الوحيد في مصر)، اخترق السُحب ودخل في حالة (awkward position) في هذه الحالة تكون الطائرة مقلوبة لكن الطيار لا يشعر بذلك، إنَّها من الحالات الّتي لا يجب أن يثق الطيّار في إحساسه، عليه أن يُتابع العدادات فقط. جذب هشام العصا للتسلق والارتفاع، لكن الطائرة كانت تنزل إلى الأرض، وهو يظن أنّها ترتفع إلى السّماء، فبالنسبة إليه لم يكن هناك فرق بين السّماء والأرض، ظلّ ينزل حتى اصطدم بالأرض و انفجرت الطائرة. حتى الطيارين الروس الّذين استدرجتهم الطّائرات الإسرائيلية من مطار بني سويف إلى كمين في منطقة العين السخنة، كان الاشتباك حارًا جدًّا

كعادة اشتباكات صيف 1970، فقد الرّوس خمس طائرات، وأصيبت طائرة سادسة وهبطت في مطار انشاص، لا بُد أنّ الطيّارين الروس لهم زوجات وأطفال ينتظرونهم في بلادهم البعيدة، وعلى ذويهم تحمل عذابات الفقد الّتي تفوق تحمل البشر.

لن أتزوج حتى لا يصبح لديّ ما أخشاه، أتتفقون معي في ذلك؟

***

- أوراق جهاز الإرسال على الطّاولة -

فشلت كل محاولات إنقاذه واستعادته، ظلّت المروحيات تبحث عنه لأيام وسط الجبال، لكن لا أثر له، لم تُلتقط أيّ إشارة من جهاز الإرسال الّذي معه، على الأغلب به عطل. فيما بعد، ظهرت من السّماء مظلّة طيّارين الجبال، بالتأكيد هو «أحمد نور الدين»، المظلّة بجوارها جسد التهمته الذّئاب وجهاز إرسال روسيّ لعين لا يعمل مداه ثمانية كيلومترات.

الحياة مرة واحدة، هكذا أراد الله، لكن لو عاد «أحمد نور الدين» إلى الحياة لسرد لنا قصة رائعة تُشبه حكايات ألف ليلة وليلة، شعوره حينما قام بتوصيل جهاز الإرسال بالبطارية ولم يعمل. كيف صارع الذّئاب برجل مكسورة!!، لا بُد أنّه قاومهم حتى أصبح من المستحيل أنّ يُكمل.

المسئول عن عدم العثور عليه: جهاز الإرسال، لو كان يعمل لأمكن تحديد مكانه بسهولة، ووصلت إليه المروحيات قبل الذّئاب. بعد أنّ يقفز الطيّار المصريّ بالمظلّة يجب أن يقوم بتوصيل جهاز الإرسال ببطاريّة ضخمة، ويصل مدى إشارته إلى ثمانية كيلومترات. إسرائيل لديها جهاز إرسال في حجم علبة سجائر، يعمل من تلقاء نفسه بمجرد أن يقفز الطيّار بالمظلّة، ويصل مدى إشارته إلى ثمانين كيلومتر. حدث مرّة أن قفز طيّار إسرائيلي بالمظلّة في البحر المتوسط، وقبل وصول قوّات البحريّة المصريّة إليه، وصلت مروحيّة إسرائيلية و انتشلته من المياه.

وتوالت أيام الله، عُقد مؤتمر في مطار إنشاص حضره «علي صبري»، نائب رئيس الجمهوريّة، وكان طيّارًا سابقًا، ذكرتُ له بنبرة حادّة عيوب الأجهزة الرّوسيّة، ومنها جهاز الإرسال الّذي يكون مع الطيّار، ووصفت أحد الخبراء الرّوس بأنّه مخترع ناجح للمشاكل.

بعد المؤتمر قال لي أحد قادة الألويّة الجوّيّة: «أنت كدة أذيت نفسك، علي صبري شيوعي و أنت انتقدت الاتحاد السوفيتي بشدة»، أخبرته أنني لم أنتقد الشيوعيّة ولكني انتقدتُ الاتحاد السوفيتي.

في اليوم التالي تلقيتُ اتصالًا غيرودي تمامًا من شخص لم يُفصح عن اسمه، طلب مني أنّ أسمعه جيدًا، استعرض سُلطته بفخر، هدّدني بأن يرسلني خلف الشّمس وطلب مني أن أفكر في مُستقبلي وأمي و أبي وأنّ أهتم بشئون نفسي فقط، أغلق الخط دون أنّ يمنحني رفاهية الرّد.

عاود الاتصال بي في المساء، كان صوته واضحًا مثل شّمس الصيف ورغم ذلك أخبرته أنني لا أسمع الصّوت جيدًا وأغلقتُ الخط.

كنتُ أجهل أنّ «علي صبري» من الشيوعييّن، ولم أكن أعلم أن أحفاد ستالين متوغلين في السُلطة لهذه الدّرجة، فنحن في دولة اشتراكية، حتى حينما كان عبد الناصر يذهب إلى موسكو كي يرمي البلاد في حجر الدّب الشيوعي، يُبرز صديقه في الأهرام في صدر الصحيفة أنه حرص على الصلاة في أحد مساجد موسكو.

وجها لوجه صارحت الرجل الأكثر نفوذًا في الدّولة (أقوى من الرئيس نفسه)، صارحته بما لم يكن أحد يُريد قوله، أصابتني عدواته وربما أتلقى ركلة خلال الأيام القادمة وذلك إنّ لم يتلقى هو ركلة خارج لعبة السُلطة الّتي تُشبه كثيرًا

لعبة الكراسي الموسيقية الّتي كنا نلعبها في المدرسة. منّ يسبق، يجلس على المقعد.

***

لعبة استباق الهدف وانتظاره.

منذ زمن بعيد، كانت الطائرات تُحلّق بسرعات مُنخفضة، وكانت نيران بطاريات المدفعية تُسقطها بسهولة، لكن أثناء الحرب العالميّة الثانية، باتت الطّائرات الألمانية تمتلك سُرعات عاليّة، فأصبح التصويب ليس على الهدف مباشرة لكن على نقطة تسبق الهدف، أصبح على جندي المدفعيّة أنّ يتوقع أين سيكون الهدف بعد زمن معين؟ هذه سياسة التعامل مع الهدف المُتحرك، عليك دائمًا أن تكون أمامه لا خلف ظهره.

هكذا كانت الولايات المتحدة الأمريكيّة أمام الاتحاد السوفيتي لا خلفه، لذا آمن السادات أن الحل بيد أمريكا، وبدأ يغازلها غزلًا صريحًا، في فبراير/تشرين الثاني 71 عرض اتفاقية سلام مع إسرائيل في مقابل انسحابها من سيناء، خرج السادات عن قفة عبد الناصر، فما أُخذ بالقوّة سوف يُسترد بالمفاوضات، ولا صوت يعلو فوق صوت المفاوضات.

***

كان عام 71 مزدحمًا بالأحداث السياسيّة يُشبه طريق صلاح سالم ساعة الذروة، في مايو/أيار وصل صراع السادات مع مراكز القوى إلى حافة منحدر جبلي، ولا بد أن يرمي أحدهم الآخر. بعدما أَسقطت اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي العربي مشروع الوحدة الكونفدرالية مع ليبيا وسوريّا أقال السادات «علي صبري» (شعرتُ بالارتياح وسلامتي منه الآن باتت مضمونة)، بعد أيام أقال السادات؛ شعراوي جمعة.

في متتابعة من الصدمات الكهربائية أذاع راديو القاهرة عاصفة هوجاء من الاستقالات الجماعية لرئيس مجلس الأمة وعدد من الوزراء ومسئولين في الاتحاد الاشتراكي، قلت ما زاحا لقائد السرب: «هو حضرتك مش هتقدم استقالتك في المهرجان ده ولا إيه!!!»، فابتسم. وكأنّ السادات يعلم أنّ الإثارة تأتي من الخطوات السريعة للأحداث، قبِل استقالاتهم نهارًا وقبض عليهم ليلًا، وهكذا حطم معارضيه بلكمة واحدة وزجّ بهم في السجن لجريمة: الغباء السياسي، أزاحهم من طريقه كما لو كان يخلع ثوبًا بزر واحد، كشف السادات وجه سياسي بارع ينطبق عليه قانون مكيافيلي: «ماكر كالثعلب وشجاع كالأسد»، وكيف لا يكون شجاعًا وقد اشترك في تنظيم سرّي أطاح بالملك، وقرأ بيان ثورة يوليو والملك ما يزال على عرشه!!!

بدون توقف، أزاح السادات الفريق «محمد فوزي» عن الجيش وحل محله «محمد صادق»، وبعد أربعة أشهر أصبح لمصر دستورًا دائمًا و«الجمهورية العربية المتحدة» أصبحت «جمهورية مصر العربية»، أدار السادات ظهره إلى حلم عبد الناصر: الوحدة العربية.

بعد «ثورة التصحيح!» أظهر السادات مهاراته في الخطابة والتمثيل أمام عدسات الكاميرات، في ذكرى النكسة أعلن أنّ عام 71 هو «عام الحسم» قال إنّه أصدر قرارًا للقوّات المسلّحة بالتجهيز للحرب قبل انتهاء العام.

عمّت الفرحة جميع البلاد، وأصبح الناس يستيقظون صباحًا يفتحون أجهزة المذياع وينتظرون إعلان دخول الجيش سيناء كما ينتظرون حفلات أم كلثوم.

***

كان الدكتور لبيب صيدليّا معروفًا في بنها، يمتلك أجزخانة بشارع المحطة يقضي فيها مُعظم وقته، وابنته هايدي طالبة رقيقة بكلية الصيدلة جامعة

القاهرة. تربطنا بالعائلة علاقة طيبة، وأخت زوجته صديقة لوالدتي منذ أيام الطفولة.

أول ما شعرتُ به حينما وطأت قدمي منزل الدكتورلبيب الاطمئنان والسكينة، كان واضحًا من استقبال والدة هايدي لنا أنَّها تعارض الزواج، دخلت دون ضوضاء أو كلام أو ابتسامة، وكأنها لا تعترف بوجودي، أمّا هايدي فوزعت النظرات بيني وبين أمها.

قالت لأمي بصراحة: «هايدي لها أخت متزوجة من طيّار، ولن أزوّج هايدي لطيّار و أنتِ تعرفين أننا في حرب»، الغريب أنّ أمي تعاطفت معها، وبذلك أسدل ستار من الفولاذ على موضوع زواجي من هايدي.

ومع رفض والدة هايدي وإعلان السادات أنّ الحرب ستندلع هذا العام تخليتُ عن فكرة الزواج.

دوّنت في ملاحظاتي: «يا إلهي أعطني حُبًا بقدرحاجتي إليه، أعطني قطرة حب في هذه الأرض القاحلة، لا تُسلّم مجاديف قلبي إلّا لامرأة صالحة».

***

تمت الخِطبة بعد مفاوضات صعبة مع والدة هايدي، يرجع الفضل إلى هايدي ووالدها، وقد صرح ليّ بأن أعمارالبشربيد الله.

من حفل الخطوبة

سُرعان ما اتضح أنّه لا شيء كالحب، وأنّ هايدي مُنسجمة معي تمامًا، وأنّ الحياة جمعت بيننا عن قصد، وأنَّها واثقة من نفسها بشكل رائع، ولو أمتلك سُلطة مجلس اللّوردات لمنحتها لقب دوقة، أعلى درجة في سلم النبلاء.

كنت أقضي إجازتي معها في بلفودير هيلتون النيل بميدان التحرير، أحاول انتقاء الكلمات لإيماني أنّ «الّذين يسرقون الأغنياء يرتدون ملابس أنيقة، والّذين يسرقون قلوب النساء تكون كلماتهم رقيقة»، لا نتوقف عن الكلام إلّا حينما نتفاجأ بأنّ السّاعة تقترب من الثانية عشر، ومثل سندريلا تصر هايدي على المغادرة بحيث تكون في البيت قبل مُنتصف اللّيل، وطوال سنتين لم أستطع أن أثنيها عن ذلك ولو مرّة، والغريب أنّ تلك العادة استمرّت بعد الزواج.

ذات مرة كنتُ أجلس مقابل هايدي ناسيّا نفسي والحرب، أوزع عليها نظرات الإعجاب أما عينيها فكانتا تهربان ناحية نهر النيل وبرج القاهرة وبين أحضان كفيّها كوب شاي ساخن.

مِن البلفودير، يظهر نهر النيل وبرج القاهرة (صورة حديثة)

فوق كتفها رأس شخص آخر نحو الأربعين عامًا يختلس نظرات غريبة ناحيتي ويتفحصني، يجلس حول طاولة خلف ظهر هايدي تقع بعد ثلاث طاولات منا، بجواره سيدة ترتدي إحدى مُشتقات اللون الأحمر، شقراء كالأجانب تتكلم وهي تنحني عليه.

نادى الرّجل على من يقوم على الخدمة وتكلّم معه وهو يُشير ناحيتي خلسة، وبعدها مباشرة جاء الأخير إليّ وسألني إن كنتُ سمير عزيز؟

تغيّر لون وجهي، وضعتُ يدي فوق جيبي وتحسست مسدس حلوان، فقبل أسبوع صدرت أوامر للطيّارين بحمل السّلاح دائمًا لأنَّ هناك معلومات أنّ الموساد قد يُرسل قتلة لاغتيال الطيّارين.

كانت هايدي تتكلم لكني لم أكن أسمع منها شيء، فجأة توقف كل شيء وأصبح جميع الناس حولي قتلة مُحتملين، أو مُساعدين لقاتل مأجور.

***

لم أنتظر، نهضتُ فجأة أثناء حديث هايدي، قررتُ أن أذهب إليه بنفسي وبذلك أُربك خطته، حينما نهضتُ وقع الرّجل في الاضطراب والقلق وصوب ناحيتي نظرات وجلة استمرت و أنا أتقدم ناحيته، وكان المسدس ثقيلًا في جيبي وبارزًا بسبب حجمه الكبير.

صافحته، وتبادل معي تحية المساء وهو مكانه وكأنّه مُسمر في المقعد، كنت حريصًا أنّ تظل يده في يدي طويلًا كي أقيد حركته وأجعله يرتبك أكثر.

قامت هايدي وسارت خلفي، وصلتُ أولًا ووصلت هايدي ويدي ما زالت في يد الرّجل، وصافحت المرأة الشقراء الّتي تجلس معه، صافحت قريبتها.

حينما عدتُ إلى البيت، أخبرتني أمي أنّها تلقت اتصالًا من مطار المنصورة، يطلبون مني العودة إلى المطار في السادسة صباحًا، أعلنت حالة الطوارئ، لم أخبرها أنّ حالة الطوارئ تعني شفا الحرب.

سألتني و أنا أعد حقيبتي: «هل أنت ذاهب إلى الحرب؟»

***

مرَّ عام الحسم بدون حسم، قال البعض أن السادات أصدر قرار رئاسي بمد عام 71 سنة أخرى. وهكذا بدأ الشك في الحرب يسري في عروق الناس، «حسم إيه اللي أنت جاي تقول عليه، أنت عارف قبلا معنى الحسم إيييييه!!!»

في «خطاب الضباب» برر السادات تأجيل قرار الحرب بالضباب الّذي يحيط العالم بسبب حرب الهند وباكستان.

قال الناس «أصل سلاح الدبابات مش جاهز للحرب»، وفي الجامعات رُسم السادات وهو يُدخن الشيشة وحوله دُخان كثيف (يرمز إلى الضباب). وبعد أيام قليلة من خطاب الضباب حدث اعتصام طلبة جامعة القاهرة مطالبين بالحرب، ثم انتقل الاعتصام إلى ميدان التحرير، سُمي (فيما بعد) باعتصام؛ الكعكة الحجرية.

فضت الشرطة اعتصام الطلبة بالعصى والهراوات وقنابل الغاز، وغنى الشيخ إمام: «رجعوا التلامذة ياعم حمزة للجد تانيا، يا مصر أنتِ اللي باقية و أنتِ قطف الأماني».

بتلك الاضطرابات دخلت البلاد عام 72، وأصبح السادات في حاجة إلى خوض حرب.

***

- عام الطرد -

ما زال دفتر ملاحظاتي يتذكر ملامح طيّار باكستاني قال لي بصوت مكسور بعد مناورات وهمية (مصطنعة) تغلبت عليه فيها بطائرتي الميج 21: «لن أدخل قتال مع طائرة ميج 21 مرة أخرى».

ما زلتُ أتذكر سيدي طائرتك الميراج، كان ذلك في وضح النهار، في ليبيا، السّنة الّتي طَرد فيها السادات الخبراء الرّوس من مصر، واشترت ليبيا طائرات ميراج من فرنسا لصالحها، لكن في العتمة تم نقل الطّائرات إلى مطار طنطا، كانت هدية لمصر، وتم خداع فرنسا التي فرضت حظر تصدير السلاح الفرنسي إلى الدول المُتعاركة في الشرق الأوسط (مصر، سوريا، الأردن والمرجومة إسرائيل).

في البداية، كان هو خلفي بطائرته، تعذرعليه قنص طائرتي، قمتُ بعمل دوران برميلي واختفيتُ من أمامه، أصبحت خلف طائرته، وأصبح صيدًا سهلا لي.

في المناورة الثانية كنتُ خلفه، حاول أنّ يفلت من سهامي وفشل.

في المناورة الثالثة كل طائرة تطير في اتجاه الأخرى كأنها ستصدمها، وقبل الاصطدام بثوانٍ تنحرف إحداهما وتبدأ المناورة، كل طائرة تحاول وضع الأخرى أمامها وقنصها (مين يمسك ذيل التاني؟).

لو كانت طائرتي محملة بالصواريخ، لدمرتُ الميراج ثلاث مرات، لكن للأسف محملة فقط بكاميرا، حينمَا أضغط على الزناد فإنَّها ترصد ما يحدث، أظهر الفيلم بعد تحميضه أنني في كل مناورة كنتُ قادرًا على نسف الميراج.

***

تفوّقت الميج على الميراج في المناورات، حتى أنّني حينما حلّقتُ في السّماء بطائرة ميراج حاولت القيام ببعض المناورات الّتي تقوم بها الميج بسهولة، صرخ مدرّبي الباكستاني في المقعد خلفي: «توقف إنّها لا تستطيع فعل ذلك، سوف نموت».

لعبتُ معه دور محقق البوليس، معي أسئلة كثيرة، لكنه لم يجب عنها جميعًا، وأغلق الحوار قائلًا: «اسمع، إنها مجرد طائرة وليست مركبة فضاء».

تلطخت سُمعة الميراج وسقطت هيبتها إلى الآبد، رجعنا من ليبيا وبعد أيام لحقتنا الهدية.

***

أهكذا تكون السعادة!

أجمل لحظات حياتي اكتشفتها منذ أربعة وأربعين عامًا، تحديدا في مُنتصف يوليو/تموز 73 بدأت أيام السّعادة، كان زواجي من هايدي ميلادًا جديدًا لي، فكما لِلكون عهدين قديم وجديد، لكل فُسيفساء كَونية عهدين وميلادين.

يا لأيام شهر العسل الرائعة الّتي أمضيناها بين فندق عمر الخيام بالقاهرة وهلنان بحديقة المنتزه في الإسكندرية وفندق البوسيت بمرسي مطروح.

من حفل الزواج

من حفل الزواج؛ من اليمين، محمود القباني، عبد المنعم همام، سراج ياسين، سمير عزيز، هايدي، رضا إسكندر، مدحت لبيب، وخلفهما سائق السرب، إسماعيل إمام بزي مدني، شاكر فتح الله.

***

5 أكتوبر/تشرين الأول 1973.

مساكن الطيّارين، مدينة المنصورة.

جلستُ أنا وهايدي، تشابك أيادينا، تُضيف وهي تختتم ذكرياتها عن الطّفولة وجسر بنها فوق النيل، غنت له داليدا؛ على كوبري بنها: «الألعاب والأشياء الجميلة، دائمًا ما كانت تضيع مني».

برفق ألقت رأسها فوق كتفي.

«أنت ليه عايز تخليني أرجع القاهرة النهارده؟»

قالت إنّها تريد أن تبقى بجواري، و أنه لا حرب في الأفق فكل شيء على ما يُرام، وذرفت في صمت دموعًا من أجلي. حاولتُ التملص من نظرات عينيها لأنّني لا أستطيع أن أخبرها بكل ما يدور في رأسي وما عرفته من الإشارات المُتفرقة وحالة الطوارئ، كذبت عليها و أنَّه لأمر فظيع أن تصبح مضطرًا إلى الكذب، عفوًا، أنّ تقنع نفسك أنّك مضطر إلى الكذب، وأنّ الأمر سيتوقف عند كذبة واحدة. أخبرتها و أنا أداعب يدها أنّ المسافات ما عادت تُقاس إلّا بالبعد أو القرب منها، فاطمأنت، و انتقل الحُبُور من يدها إلى يدي.

وسط دموعها لم تنس أنّ تسألني عن أيّ فستان ترتدي؟ فهي ذكية تجعلني دائمًا أشعر أنها تحتاج إليّ. اخترتُ واحدًا، ولبست غيره، قالت: «لن أرتديه إلّا إذا كنت معي».

نظرتُ إليها وهي تلبس الحذاء، تشبه تمثال يوناني من رخام مرسى علم الأبيض، حملتُ لها حقيبة الملابس، وحملت هي صندوق السّاعات، به عدد كبير من ساعات اليد المتوقفة، فهي حريصة على شراء وجمع ساعات اليد النسائية، وحينما تفرغ بطارية السّاعة فإنها تضعها في صندوق السّاعات وتشتري أخرى.

في انتظارها سيارتي من نوع؛ فيت 124 سبشيال، يقودها سائق من السّرب، كان الشارع مزين بزينة رمضان متواضعة، في مُنتصفها فانوس من الخشب يلبس ثوب بلون من كل جانب. في لحظة ما شعرت أنها قد تسقط، وداع حزين وعناق طويل للمرّة الثانية بجوار باب السّيارة المفتوح، فجأة انفكت أصابعنا، انطلقت السّيارة ودخل دخانها أنفي، ظلت عيناها عليّ ويدها تودعني من الزجاج الخلفي، بعد وقت قصير غطست السّيارة في الشّارع.

أريدها بجواري لكنّها صغيرة على تحمل كلّ ما سيجري، وكيف ستتحمل صدمة الفقد وهي وحيدة؟

اتصلتُ بها عندما وصلت بيت أبيها، سألتها: أتعرفين ما أكثر ما أخشاه؟ وبعد صمت، قلتُ لها: «الحرب يا عزيزتي، لأنني ربما لن أراكِ مرة ثانية»، بكت بمرارة، أخبرتها أنها تركت لي الصحون دون غسيل، أظنها ابتسمت وهي تبكي، أخبرتني أنها تركت لي خطابًا بخط يدها فوق أجزخانة غرفة النوم. اتصلتُ بأمي كي أسمع صوتها، وتحدثتُ مع ماجدة، كانت في زيارة لوالدتي بعد أن تزوجت.

ليلة مأساوية بكل معنى الكلمة، وجه هايدي في كل مكان، فارت القهوة وأغرقت الموقد، حاولتُ نسيان الذكريات المزعجة عن الحرب، وفشلت، و أنا أقلّب صور الزفاف طرحتُ ألف سؤال على المستقبل ولم أتلق جوابًا إلّا جواب هايدي الرقيق.

***

6 أكتوبر/ تشرين الأول 1973.

لكل إنسان جانب في حياته يستحق أن يفخر به، أمَّا جنود أكتوبر 73 فكل حياتهم فخر لنا.

مثل بقية قرى دلتا النيل استيقظت شاوة مع أول ضوء للفجر، خرج فلاحوها وأطفالها بتقاسيم وملابس مُتشابهة يحملون أوعية كبيرة من الخيش قاصدين الأراضي الزراعية الملاصقة لقاعدة المنصورة الجويّة، كانت الألياف البيضاء تطل برأسها خارج لوزة القطن في انتظار من يقطفها ويكبسها مع أخواتها داخل وعاء الخيش. الذهب الأبيض يُغطي الأفق، وأصوات عصافير الجنّة تملأ الفراغ. بعيدًا، أحد الفلاحين يغرس الحبوب في الأرض، وحينما فرغ ربط جاموسة مغماة في الساقية، تدريجيًا غمرت المياه التربة وتجمعت أعداد هائلة من طيور مالك الحزين (أبو قردان)، وغطى لونها الأبيض الأرض، تخفض رأسها وتنقر الأرض الرطبة بحثًا عن الدود.

كل شيء يبدو طبيعيًا، والحياة تتكرر بالطريقة المملة ذاتها، أمام المطار تمر القطارات في وقتها والسّيارات تدهس طريق السنبلاوين السّريع، لكن داخل حدود السّلك الشائك للمطار يُعد لشيء ما في صمت مخيف وكتمان وسرية، حربٌ مُسلية ستدفع العالم إلى شفا لعبة تراشق القنابل النوويّة. لم ترض أيّ من القوّتين العظيمتين أن تخسر زبونتها وحليفتها الحرب، ومع حلول الأسبوع الثالث هدد السوفييت (للمرة الثالثة في تاريخهم) بفتح أبواب القيامة، كتم العالم أنفاسه ومرت الأرض بأصعب أوقاتها، كان الكوكب على حافة الهاوية وسينتهي طبقا للنظرية المعروفة: «بإمكان أمريكا أنْ تقتل كل مواطن داخل

الاتحاد السوفيتي، وبإمكان الأخير قتل كل مواطن داخل أمريكا وسينتهي العالم».

عند السّاعة العاشرة جمعنا قائد اللّواء أحمد نصر في قاعة المحاضرات، أمامه حقيبة سوداء وبجوارها آلة كاتبة لونها أزرق. أخبرنا بحماسة وصوت رصين اعتاد عليه أن الحرب اليوم.

أخيييييرًا، كنتُ أخشى أن يأتي يومي قبل هذا اليوم، الثأر لمطار فايد، لمطار إنشاص، لأطفال مدرسة بحر البقر، لأحمد نور الدين، لأحمد عطا، لمحمد الفولي.

«سأدك طائرتك كذبابة»، وعدتُ الطيّار الإسرائيلي، الّذي دخل معي مبارزة في فايد، أنا بمسدس وهو بطائرة سوبر مستير، أرجو سيدي أن تكون رأسك من نصيبي وألّا يكون أحد زملائي قد دكّ عنقكّ في حرب الاستنزاف.

ضجّت القاعة، تعانقنا لوقت طويل، السادات بارعًا حقًا في الخداع، فالحرب لا يجب أنّ تندلع إلّا حينما يصير في حكم المؤكد أنّها لن تقوم، هكذا دون أنّ يسبقها قرع للطبول أو ضجيج يلفت النظر أو تهديد أو تعبئة إعلاميّة ونفسيّة مبالغ فيها، كما حدث في حرب العام 67.

طلب منا قائد اللّواء أن نجلس ونهدأ، أخبرنا أنَّ ساعة الصفر الثانية ظهرًا و أنّنا يجب أن نخبر العالم أنَّ اليهود جاءوا إلى سيناء كي يموتوا، والخطة كما تدربنا عليها، وأمر بالالتزام بالصمت اللاسلكي، حتى لا يكتشف العدو وجودنا، وأمر بكسر صيام رمضان.

***

سأصبح طيارًا في الجيش، هذا ما أخبرتُ به أبي بينما كان يقرأ جريدة الأهرام، ويتناول قهوته الصباحية قبل أنّ يخرج للعمل برئاسة القوات الجوية، طوى الجريدة ووضعها بجانبه، نظر إليَّ نظرة إعجاب، يعرفني أبي بشكل ممتاز، فالفتى الصغير يُجيد إطلاق النار وتفكيك وتركيب وتنظيف البنادق، ولديه بندقية؛ لي آنفيلد؛ يعرف خباياها.

كان أبي مُتدينًا ولعله وجد في غرس الفكرة العسكريّة برأسي بديلا عن شيوعيّة يمقتها بشدة، فلنْ يكون في مصروقتها صراع طبقي كي نستدعي الّذين لا يؤمنون بالله لمواجهته. أذكر أنَّه غضب بشدة حينما وجد يومًا ما في يدي؛ «المانفيستو الشيوعي»، أعطاني إيّاه صديق شيوعي. في بيتنا مكتبة كبيرة تخلو تقريبًا من كلمة ماركس، أنجلس، لينين. أضافت أختي (ستصبح فيما بعد موظفة بالبنك الدولي) إلى المكتبة روايات نجيب محفوظ وديكنز، كانت تحافظ على القراءة وسماع أغاني عبد الحليم وتبادل أسطوانات حفلاته مع صديقاتها بقدر التزامها بالاحتفال بيوم مولدها كل عام. أمّا أنا فأضفتُ إلى المكتبة كلّ ما يتعلق بالطيران والحربين العالميتيّن الأولى والثانية، وكتب عن الطيّارين العظماء أمثال الطيّار الياباني؛ «سابورو ساكاي»، الملقب بـ«ساموراي السّماء».

مضى على وجودي على الأرض ثلاثون عامًا، مكثتُ منها في الجيش المصري ثلاثة عشر عامًا، وطوال حياتي لم أفوّت ميعادًا للحرب، شهدتُ حروب اليمن و67 والاستنزاف، وها هي الحرب الرابعة الّتي لا اسم لها حتى الآن، وربما تكون حربيّ الأخيرة.

وضّحتُ لقائد اللّواء أنّ وجود جميع الطّائرات على الأرض سيجعل إسرائيل تشك في أنّ القوّات الجويّة تستعد لأمر ما، اتصل بقاعدة انشاص لبحث الأمر، عند السّاعة الحادية عشر أمر بإقلاع تشكيل من السّرب 46 وتشكيل من

السّرب 44 لعمل تدريب مُعتاد ومظلّات على ارتفاع خمسة كيلومترات فوق الأرض (كي نظهر على شاشة الرادار الإسرائيلي).

عدنا عندما انتصف النهار، كانت هناك أعداد هائلة من الأطفال والكبار في الأراضي الزراعيّة يجمعون القطن.

داخل استراحة الطوارئ، قام قائد كل تشكيل بتلقين طيّاريه للمرة الأخيرة. تناولنا الغداء، قضينا بقيّة الوقت في تبادل الأحاديث، تراشق نظرات التوتر والابتسامات الروتينية، ترك وصايا، متابعة مرور الوقت، التسلي بقصص الطيّارين العظماء الّذين عاشوا بلا خوف أمثال ريتشهوفين المُلقب بـ البارون الأحمر، والمحاربين الشجعان أمثال: عزيز باشا المصري، الّذي هتف له المصريون: «يا عزيز يا عزيز كُبة تاخد الإنجليز». في ذهني هجوم طائرات زيرو و إيشي اليابانية المباغت على الأسطول الأمريكي الراكد في مياه بيرل هاربر، يوم السابع من ديسمبر/ كانون الأول 1941، بهذا الهجوم زجّت اليابان بأمريكا فعليًّا في موقد الحرب العالميّة الثانية.

كان الوقت يتلكأ، و انتقلنا إلى الدشم.

قبل السّاعة الثانية بقليل، وفي تزامن دقيق، دارت محرّكات الطّائرات، و انطلق الدّخان خارجًا من مداخن الدشم، فُتحت أبواب الحرب والدشم، السّماء تُنادينا، دوى صوت خرطوشة إِسكرامبل، إعلانًا ببزوغ شمس ليلة الخامس من يونيو/ حزيران 1967، ليت ناصر حيّ ليرى.

ومثل كل الحروب الحديثة، فإن الطّائرات أول من يلتحق بالحرب، أول ما يظهر فوق خانات العدو على رقعة الشطرنج.

***

الجنود بطول قناة السويس لوّحوا إلينا، عبرنا القناة ولم يقف أيّ شيء في طريقنا، رأيت مواقع المدفعية والصواريخ الإسرائيلية تنفجر ومراكز القيادة تذوب، كل شيء ينفجر، يحترق، يذوب.

كانوا نائمين لم يسألنا أحد: «من هناك؟»

بعد تنفيذ المهام، أمرنا المُرشد اللاسلكي (الموجّه) بالعودة إلى المطار، انتظرتُ لدقائق كقائد تشكيل رباعي وكي أشبع رغبة بداخلي، كان الجنود يعبرون القناة في قوارب.

حينما اقتربتُ من مطار المنصورة، انطلق صاروخ مصري على طائرتي، ناورتُ بالطائرة كي أتفاداه ونجوتُ بأعجوبة، نظرتُ إلى الأسفل فوجدتُ صواريخ أخرى تنطلق نحونا مثل قطيع حيوانات مُفترسة وخلفها سحابة من الدّخان والغبار (حينما ينطلق الصّاروخ تضرب غازاته الناتجة عن مُحرك التسريع الأرض فيندفع الرّمل إلى ارتفاع زهاء عشرين مترا).

يبدو أن أجهزة التعارف اللّعينة في غيبوبة.

***

حسنًا، إنّ أصيبت الطّائرة وقفزتُ بالمظلّة، فسوف أعود إلى المطار على قدميّ وفي يدي المظلّة، وهذه فائدة أن تسقط في أرضك، يمكن أيضًا أن تطير بعدها بدقائق. أسرعتُ في الهبوط على الممر، أنقذتني صلوات أمي وزوجتي.

تبيّن أنّ الطيّار «حسن خضر» كان في برج المراقبة وأبلغ غرفة عميات المطار أنّ جميع الطّائرات عادت ولم يعد لدينا طائرات في الجو، فظنّ الدفاع الجوّي أنّنا هدف مُعادي.

عادت جميع الطّائرات سليمة ولم تفقد قاعدة المنصورة أيّ طائرة، أفقدنا العدوّ الوعي والاتصالات اللاسلكيّة، نجحت الضربة الجويّة الأولى، ولسبب ما ألغيت الثانية المقرّرة عند الرّابعة والنصف، حدثت مذبحة الهليكوبتر، كانت تقوم بإبرار قوّات الصّاعقة بدون حماية جويّة والتهمت أغلبها طائرات العدوّ. الأخبار القادمة من العُرس تقول أنّ أرض الجولان تهتز تحت أقدام الجيش الأول في العزيزة سوريا (خبطة قدمكن على الأرض هدارة، أنتوا الأحبة وألكن الصدارة[1])، أما الجيشين الثاني والثالث في مصر فقد عبرا القناة ورمال بارليف واستولى الجنود على النقاط الحصينة الّتي تشبه قلاع القرون الوسطى.

لم يكن هناك وقتٌ لتدوين ما يحدث في ملاحظاتي. بقينا في الطّائرات في حالات الاستعداد، أو في مظلّات (دوريات) فوق بورسعيد والإسماعيلية. وليلًا، رأيتُ في سّماء المنصورة وهج صواريخ كليت (جو أرض متوسطة المدى) تُضيء السّماء وتنطلق إلى أهداف في عمق سيناء من طائرات تي يو 16 يُخفيها الظّلام.

***

[1] من غِناء فيروز، للجيش العربي السوري.

الطريق الذي تسلكه الطائرات الإسرائيلية لدخول أرض مصر بعيدًا عن شباك حائط الصواريخ (في الأسبوع الأول من يوليو/تموز 1970 التهم جزءًا من ذراع إسرائيل الطويلة، أربعة وعشرين طائرة فانتوم، ولذا أطلق عليه؛ أسبوع تساقط الفانتوم).

ملاحظتان:

1. تُقلع الطائرات الإسرائيلية من مطارات سيناء صوب البحر المتوسط وتطير فوقه، متجنبة حائط الصواريخ، وبمجرد أنْ تصل السّواحل المصرية وتطأ سّماء الوطن بوجوه باردة ناحية أهدافها في دلتا النيل، تُبلغ عنها نقاط مُراقبة بالرادار أو النظر تمتد بطول السّاحل، فور وصول الإنذار تخرج طائرات مصرية للتصدي لها ومنعها من الوصول إلى أهدافها.
2. غالبًا، توجد نقطة المراقبة بالنظر في منطقة نائية قاسية أو صحراوية خطرة، عبارة عن عريشة لا تُلفت النظر، يعمل بها جنديان (أو ثلاثة) في نوبات، مُدرّبان جيدًا على التمييز بين أنواع الطّائرات الإسرائيلية، ومزودين بجهاز لاسلكي ومناظير وأسلحة خفيفة للدفاع عن النفس، يقضي أحدهم نوبته في مُراقبة السّماء وبمجرد رؤية طائرات للعدوّ يُمسك اللاسلكي ويبلغ عن عدد الطّائرات و أنواعها، يصل الإنذار مباشرة إلى جميع غرف العمليات بالمطارات بالإضافة إلى غرفة عمليات القوّات الجويّة الرئيسيّة والسّريّة.

- القطط المذعورة -

7 أكتوبر/ تشرين الأول 1973، ثاني أيام الحرب.

السَّابعة والنصف صباحًا.

بينما كنتُ أقف بجانب إحدى الدشم أنتظر أوامر الإقلاع لعمل مظلّات (دوريات)، كانت الكلاب تنبح حول المطار والطّائرات الإسرائيلية في الطّريق إلينا، تسلك طريقها المُعتاد بعيدًا عن الغول الرابض بطول قناة السويس، حائط الصواريخ.

فجأة سمعتُ ضجة، وبدأ القصف من السّماء، كان الله معي حينما مرّت بجوار أذني اليُسرى شظية تائهة سمعت صوتها جيدًا، وكادت أن تسد فتحة أذني، استقبلت صواريخ ستريلّا طائرات العدوّ واصطادت طائرة فانتوم، سقطت بجوار المطار.

لا أبالغ حينما أقول أنّ الطّائرات الإسرائيلية كانت مذعورة (من يبدأ حربًا عليه ألّا يبكي). الكثير من القنابل وقعت في الأراضي الزراعيّة حول المطار، ونصيب المطار ثلاث قنابل فقط؛ قنبلة سقطت فوق دشمة، لم يحدث لها شيء، وقنبلة سقطت على الممر، حفرت حفرة عملاقة، وتم دفن القنبلة في حفرتها، وطمرت بإسمنت سريع وعاد الممر للخدمة خلال دقائق، أمّا القنبلة الثالثة فكانت لها حكاية.

سقطت القنبلة الثالثة عند نهاية الممر بجوار استراحة الطيّارين، تقف نصف مدفونة ولم تنفجر، وسببت قلقًا للجميع، قال لي مجدي كمال (قائد السّرب): «ما تيجي نشوف القنبلة ديّة نظامها إيه؟»

ركبنا سيارة جيب، وذهبنا في زيارة عائلية للقنبلة، نزلنا من السّيارة وطفنا حولها مرّتين أو ثلاثة، أخبرني أنها ربما تكون قنبلة موقوتة أو مُعطلة، ثم عدنا. شجع ذلك العمل الجميع، وعاد العمل بالمطار وكأن القنبلة غير موجودة، أقلعت الطّائرات وهبطت بجوار القنبلة.

كنتُ أعلم أن بعض قادة الفرق والألوية، مثل اللّواء «سلامة غنيم»، يجلسون فوق قنابل العدوّ الموقوتة ليحمسوا الضباط والجنود، يا لها من شجاعة!!

بعد فترة، حضر جرار زراعي وقام بجر القنبلة النائمة إلى خارج المطار، وتم تفجيرها بعيدًا.

***

يقولون إنّ جوهر الكائن البشري يظهر وقت الشدة، والحرب أعظم شدة تمر على أيّ وطن، تُحلق الجملة السابقة فوق رأسي و أنا أكتب عن جندي يعمل سائق في مطار المنصورة، مُسليًا مثل المذياع، مَرِح و ابن نكتة ولم تفلح قسوة الحرب والقصف ومشاهد الموت وعقوبات قائد السّرب في تعديل سلوكه، لا يلتفت لطلبات نفسه وكثيرًا ما يلغيها، يبيع لزملائه تعيينه اليومي من السجائر، يُغالي في التقشف وعرفتُ أنه متزوّج ويعول والديه وإخوته، بعدما أجبرهم القصف الإسرائيلي على هجر بيت ودكان وحياة كريمة في السويس، لم يَبح بذلك الجزء المُظلم من حياته إلا للقليل. في آخر حديث بيننا كان مُحبطًا والأمر بالنسبة إليه بات مُستحيلًا، فجأة سكت عن الفضفضة وقال «سمعت يا

أفندم آخر نكتة؟» وألقى نكتة عن السادات، هكذا يقاوم الحياة، بالسخرية منها.

ذات صباح في مطلع يناير/كانون الثاني استيقظنا ولم نجده، أرهقته الحياة ولم يصمد راتب الجيش الزهيد أمامها فقرر (مع الأسف) الهروب من الخدمة العسكرية، انقطعت أخباره (عدا أنَّه يعمل سائق بمحافظة الشرقية)، لم يُر وجهه منذ تلك اللّيلة.

قرب ظهيرة ثاني أيام حرب أكتوبر، حدث شيء هزني إلى درجة لن أنساها، حضر الجندي الهارب إلى المطار بملء إرادته، استقبله زملائه استقبال الفاتحين، كيف لا وهو من يجعلهم يضربون الأرض ويقفزون في الهواء من الضحك!!، قام بتسليم نفسه إليّ، نظرتُ إليه مليًا، هزيلًا وعنقه طويلة وندوب حبّ الشباب تعزو وجهه، عينيه غائرتين ومكسوتين بالحزن، هزمت الحياة مرحه، يرتدي ملابس ملكية (مدنية) رثّة جدًّا ونسي أن يحلق ذقنه. سألته بشيء من التطفل والإعجاب عن سبب عودته، لم يرفع بصره وكانت الإجابة على وجهه ولو كان سيجيب لألقى خطبة مؤثرة عن حُب الوطن والموت من أجله، بسرعة انتشر خبر عودته في المطار، وتسّلم العمل، أضافوا إلى اسمه الأول «العايد» يعني العائد.

***

في نهاية اليوم هاتفتُ زوجتي في بيت أبيها، كانت قلقة جدًّا و انتظرت لساعات بجوار الهاتف.

طوال حياتي لا أجيد فن الغزل (عكس ما تقوله هايدي)، فقط قلتُ لها: «أنا أحبك، وبقيت حيًا و أنا بعيدٌ عنك بأعجوبة». لا أدري حقًا كيف قلتُ ذلك!!

قالت: «أنا في المكان الخطأ، يجب أنّ أكون بجوارك الآن».

أغلقتُ الخط وما زالت السماعة في قبضة يدي، وهاتفتُ أمي.

***

8 أكتوبر/تشرين الأول 1973، ثالث أيام الحرب.

كم أحب هذا البلد، بكل ما فيه، شوارعه الرثّة وقصوره الملكيّة وقطاراته العتيقة وأهراماته الخيلاء وعقوبات أمهاته القاسية وأيامه العصيبة الّتي تصنع الرجال. ولطالما حلمتُ بالعيش فيه في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حيث تعج شوارع القاهرة والإسكندرية بخليط من الأزياء واللّغات، العربيّة والتركيّة واليونانيّة والإنجليزية والفرنسيّة.

ورغم أنَّ شوكولا جروبي لم تعد تسحر ملكات أوروبا، ولم يعد الأجانب يبحثون عن عمل في مصر، إلّا أنني لن أكفّ يومًا عن حب هذا البلد.

ما زلت قادرًا على الوصول إلى تفاصيل ثالث أيام الحرب وسط متاهات الذّاكرة وأوراق دفتر مُلاحظاتي. كنتُ مُصابًا بالزكام، وأستخدم سرًا نقط أنف بريزولين خوفًا من أنّ يحرمني طبيب السّرب من الطيران.

قبل الضوء الأخير بساعة، تحت سقيفة استراحة الطوارئ المغطاة بكميات هائلة من الطين، طلب مني «مجدي كمال» (قائد السّرب) استلام حالة الطوارئ بدلًا منه، في اللّحظة الّتي و افقت فيها انطلقت خرطوشة إِسكرامبل، نظرت إليه، تغير مزاجه وكأنه شعر بالذّنب، لم يكن هناك وقت لوداعه، قفزت داخل الطّائرة، أقلعت مباشرة ومعي: صلاح (رقم 2) والقباني (رقم 3) وهمام (رقم 4).

كان مجدي أضخم مني، و أقلعت دون ضبط الأحزمة على جسدي، وكثيرًا ما كنا نربط الأحزمة أثناء الإقلاع، لكسب عدة ثوانٍ كفيلة بقلب نتيجة أيّ معركة جوّيّة، لم أضبطها، وعليكم أن تتذكروا ذلك جيدًا.

وجهنا المُرشد اللاسلكي (الموجّه) إلى بورسعيد، قائلًا إنّ هناك طائرات إسرائيلية تقصفها الآن، عندما اقتربنا من بورسعيد أمرتُ التشكيل برمي خزّانات الوقود استعدادا للاشتباك.

فوجئت بأن خزانات الوقود الثلاثة ما زالت عالقة بجسد طائرتي، قال لي صلاح في اللاسلكي «الخزانات بتاعتك ماترمتش يا أفندم»، أخبرته أنني أعلم ذلك. حينما أصبحنا فوق بحيرة المنزلة رأيت أربع طائرات ميراج فوقنا، انفصل القباني وهمام، تسلقنا الهواء للاشتباك معها، في تلك اللّحظة هناك أربع طائرات ميراج أخرى مختبئة بين خرائب بورسعيد، على ارتفاع منخفض ولذا لم تظهر على شاشات الرادار، حضرت وارتفعت للاشتباك معنا، وهكذا أصبحنا أربع طائرات مصرية وسط ثماني طائرات إسرائيلية.

(بعد ذلك بأكثر من أربعين سنة علمتُ من قائد لواء الصواريخ أنّ الهجوم الإسرائيلي كان بأكثر من خمسين طائرة، بعضها للهجوم والباقي للحماية.)

كمين، تم استدراجنا.

نظرت بجانبي فلم أجد طائرة صلاح، رأيت مكانها دخان أسود، وكأنما ابتلعها وحشٌ خرافيٌ أو باك مان (pac-man)، لم يرد صلاح في اللاسلكي، تمنيتُ لو كان قفز بالمظلّة، لكن ذلك لم يحدث، فاز واستراح، لم يكن غريبًا بالنسبة إليّ خسارة واحد (أو أكثر) في الاشتباكات أو حتى أثناء التدريب، أتذكر «نهاد فخري» في مطار غرب القاهرة بعد النكسة، جلس في قمرة طائرة ميج 21 من طراز (FL)، جذب غطاء القمرة (الباغة) ناحية اليسار وأغلقه، أقلع بالطائرة ونسي جذب

مقبض إحكام غلق القمرة، على بعد مائة متر تقريبًا من سطح الأرض انفتح غطاء القمرة، وملئها الهواء، سقطت طائرته فوق المطار، وتناثر جسده في أرجائه، رأيتُ ذلك بعيني، وجمعتُ ما استطعت من جسده.

نعود للمطار بدون طيار من التشكيل أو أكثر، ننظر إلى مُتعلقاته ببرود، وليلًا يُنحّيها أحدنا في جانب السرير، وينام مكانه وكأنه لم يكن، وفي الصباح نطير بدونه وفي أحيان كثيرة كنا نطير ودماؤه لم تجف في ذاكرتنا بعد، جعلتنا الحرب نقبل ما لا يُمكن قبوله، الموت، أكثر الأشياء حدوثًا في الحياة بالنسبة لجندي وقت الحرب.

رغم تعودي على ذلك سألتني نفسي: «كيف سأعود بدون صلاح؟»

أصبحنا ثلاث طائرات فقط، نظرت خلفي فوجدت أربع طائرات ميراج، حاولت تلقيم المدفع فلم يستجب، حدث عطل في الدائرة الكهربيّة، صُعقتُ، أصبحت طائرتي كتلة من الفولاذ عديمة القيمة. قمتُ بالمناورة ناحية اليمين زاحفًا بطائرة بطيئة جدًّا لوجود خزّانات الوقود، رأيت طائرتين خلفي.

منذ أكثر من ثلاثين عامًا (أكتوبر/ تشرين الأول 1941) كان الطيّار الألماني «فرانز فون فيرا» يقود دوريّة من ثلاث مُقاتلات، فجأة تعطلت مُحركات طائرته فوق البحر، وكانت آخر كلماته في اللاسلكي: «أصدقائي، يبدو أنني على وشك الاستحمام».

يبدو أنني أيضًا على وشك الاستحمام، فبحيرة المنزلة في الأسفل تفتح فكيّها، استمرت المطاردة، كل طائرتين تحاولان ضربي أووضعي في مرمى نيران الطائرتين الأخيرتين.

أبلغت الموجّه أنّ هناك أربع طائرات خلفي دائمًا، أخبرني أنّ هناك تعزيزًا قادمًا. تلكأت، وفي النهاية كان يجب أنّ أغادر الحفل. اتجهتُ بأنف الطائرة ناحية مياه البحيرة، وقبل أنّ ترتطم بالمياه عدلتُ جسد الطائرة في وضع أفقي وحلقتُ بها قريبًا من سطح المياه مُبتعدًا عن المعركة، فيما يُسمى: وضع الغاطس، لم تتبعني في المناورة الرأسية أي طائرة ميراج إسرائيلية لأنَّ الطائرة الميراج يكون رد فعلها بطيئًا للخروج من وضع الغاطس فترتطم بالمياه.

خرجت من القتال، وبعد ثوانٍ قليلة قلت لنفسي: «هتسيب همام والقباني لوحدهم!!، إنهم يثقون بي، أنا قائد التشكيل وسأفعل ما بوسعي من أجل سلامتهم»، بعد جدال قصير أطعتُ شجاعتي، قمت بالارتفاع والعودة.

عدتُ يا رفاق للقتال بدون صواريخ أو مدفع.

لطالما كانت مناورات القتال الجوي بالنسبة إليّ تُشبه مبارزات القرون الوسطى، لكن الفرسان فيها يمتطون طائرات وسيوفهم القنابل ومدفع الطّائرة، وفيما بعد كنتُ أنظر إلى الطائرات بدون طيّار القتالية على أنها عمل جبان، وبات الطيارون مُهددين بالانقراض في زمن الآلة.

عدتُ ودخلتُ المبارزة ولكن بدون سيف، جذبتُ جميع الطّائرات الجائعة، فطائرتي صيدًا سهلًا.

***

رأيت طائرة ميراج عن يميني، قبل أنّ أتجه إليها شعرت بشيء صدمني بشدة من الخلف، (في لقاء تلفزيوني عام 2016 مع صاحبة السعادة[1]، قلتُ كأنني فوق درّاجة وفجأة صدمها قطار سريع)، رُجّت الطّائرة بقوة، انكفأتُ للأمام، لولا

[1] برنامج تلفزيوني شهير، تُقدمه إسعاد يونس.

أحزمة تقيّدني بالمقعد لقذفتُ خارج الطائرة مُحطمًا الزّجاج، زلزال أيقظ أجراس الإنذار في القمرة وأضاء جميع اللّمبات الحمراء، تعج قُمرة الطائرة بمفاتيح التحكم واللمبات مثل ميدان مُزدحم، خرجت الطّائرة عن مسارها، نظرتُ خلفي فلم أجد ذيل طائرتي، فقط نيران، كانت مروّعة وقبيحة جدًّا بلا ذيل، فقدتُ السيطرة عليها، توقف قلبي للحظة لا بُد أن شيئًا مخيفًا وَقَع، النهاية، رأيتُ الموت أمام عينيّ، سكتت قناة غرفة العمليات وصرخات أجهزة الإنذار، النيران تقترب مني والطائرة تنزلق إلى أسفل وهي تدور حول نفسها، رأيتُ مياه بحيرة المنزلة تقترب بسرعة هائلة، يا إلهي لا أريد أن أموت. أصبحت الطّائرة صندوق من الفولاذ مُحكم الغلق يسقط من قمة وهو يحترق، البقاء بداخله يعني الموت الأسود، مُحترقًا كرغيف فُقد ذكره فوق الموقد.

ليس هناك أصعب على النفس من السقوط من قمة شيء ما، مجد، سُلطة، مال. على وشك جذب مقبض القذف، المنفذ الوحيد إلى الحياة، ربما نظام القذف خارج الطائرة مُعطل أو أفسدته النيران، إن وقع ذلك فلا مفر من إمضاء بعض الوقت في القمرة في انتظار وصول النيران إليّ أو ارتطام الطّائرة بالأرض، أيّهما أولًا. بلا شك جميع الّذين قبروا في طائراتهم جذبوا مثلي مقبض القذف، أو على الأقل حاولوا، أقل من ثانية مرت كحياة كاملة، جذبتُ مقبض القذف حتى لمست يدي صدري، لا تخذلني أرجوك يا سيدي، اندفعتُ إلى أعلى بسرعة خمسة وأربعين مترًا في الثانية تاركًا الطّائرة، الحمد لله لكن مازال الخطر قائمًا، إنها أول مرة أقفز بمظلّة في معركة جوية، شعور مختلف عن القفز في التدريب، لا تدري ماذا ينتظرك في الأسفل؟

استقرت الطائرة المحترقة فوق سطح المياه.

لم أكن مثبتًا جيدًا بمقعد القذف، مال نصف جسدي الأعلى إلى الأمام وشعرت بألم شديد في ظهري وسمعتُ صوتًا قادمًا من ناحيته يُشبه صوت جذع شجرة ينكسر (على ما يبدو كان أمرًا مهمًا ولا أعرف كيف تلقيتُ هذا النبأ ببساطة!!!)، لو كان في فمي ترمومتر للألم لتمدد الزئبق خارج الأنبوب، ألم فظيع وكل ألم أظنه الأخير، كنتُ أعلم أنّ الألم يمكن أنّ يقتل الإنسان، اعتقدت أنّ الموت أمسك بي ولن يمنحني فرصة للهرب، أخذت أردد: «مش لازم أموت، مش لازم أموت».

الألم شديد لكن الأصعب قادم لا محالة.

***

لم أمت بعد، انفتح البراشوت وبدأت مرحلة الهبوط، أخذت الدنيا تتلاشى تدريجيًا في عيني وحل مكانها صورة أمي وصوت أبي الرّصين وحنان زوجتي وأختي، شعرت بأنني سأفقد الوعي، قمت بنفخ جاكت النجاة (الدنجي) كي يضغط على الدم ويرتفع إلى رأسي وأظل بوعيي.

اصطدم جسدي بقوة بصفحة المياه الباردة والمنعشة، كانت أشعة الشّمس الذهبيّة تلمع على سطحها، تخلصت بصعوبة من البراشوت فأمسك بقدمي اليسرى و أقسم ألّا يتركها، سحبني من قدمي فوق المياه وبدأت أتزلج وأشق ماء البحيرة وأشرب منها و أتنفس بصعوبة، سيكون رائعًا لو أنّ كاميرا تحت المياه تلتقط صورة رأسي وهي تضرب المياه مررًا وتكرارًا و أنا أبصق ماء مالح دخل فمي، حاولت مقاومة البارشوت وكبح جنونه (لم أكن مستعدًا لذلك ولم أحضر ملابس السباحة)، في النهاية تركت جسدي لتمارين التزلج القاتلة.

بعد دقائق ملّ البراشوت مني، ترك قدمي وطار في الهواء بعدما استنفذ قوّتي، أصبح جسدي حرًا يطفو فوق المياه، تخلصت من الماء المالح الراكد في بطني،

أصبح لساني جافًا كورقة توت ميّتة من العطش، بصعوبة، مزقتُ جاكت النجاة بالخنجر (معي خنجر ومُسدس) لأنه يضغط على صدري بشدة، نظرت إلى السّماء فوجدتُ الطّائرات تتعارك فوقي على ارتفاع شاهق.

أثناء متابعة العراك لم أستطع الهروب من الشعور بالألم، أو إغفاله.

***

بعد قليل، رحلت الطّائرات، أصبحتُ وحيدًا وعمّ الهدوء، وكانت الشّمس بعيدًا تحاول الهبوط داخل البُحيرة.

رأيت قارب صيد يقترب مني، يشق مياه البحيرة وعليه رجلان، اقترب جدًّا، مد أحدهم عصا تجديف غليظة وطويلة ناحيتي، بالتأكيد سيسحبني بها إلى سطح القارب، ابتسمتُ للقدر وابتسم لي، سقطت العصا فوق رأسي بقوة، صرختُ، وانطلقت مدفعية شتائم بشعة من فمي، وسقطت دماء على وجهي.

(سيكون مُضحكًا لو أخبرتكم أنني للحظة فكرتُ في طاقية الإخفاء والحيوانات القادرة على التخفي).

استقبال جيد ومُبشر، كنتُ ميتًا بما فيه الكفاية وكل دقيقة تحمل لي مفاجأة جديدة. بالتأكيد ظنّا أنني طيّار إسرائيلي، أصابني الهلع وكاد قلبي أن يتوقف لأن نفي هذه التهمة يتطلّب وقتًا طويلًا ومناقشات، كما أن تجارب زملائي الطيّارين السابقة في هذا الأمر غير مطمئنة على الإطلاق، فالمحظوظين منهم اكتفى الأهالي بتكسير عظامهم عظمة عظمة.

اقترب مني القارب أكثر، طلب مني أحدهم ألّا أتحرك وإلّا حطم رأسي، رفعني من المياه، فور أن لمس جسدي سطح القارب صرختُ، قام بجذب ذراعي خلف

ظهري بقوة وأمسكهما جيدًا ورفع بيده الثانية رأسي إلى أعلى، ضغط على ظهري فصرختُ وقمت بسبّه مرة أخرى، نزع الثاني المسدس والخنجر مني.

سألني: «إنت مصري؟»

صرختُ بكل ما تبقى من قوّة: «أيوه والله العظيم مصري».

أخبرتهما أنَّ هناك سلسة في عنقي عليها اسمي.

سألني أحدهم: «السلسة دهب؟»، أخبرته أنها من الصفيح.

أخبرتهما و أنا ما زلت مُقيدًا أن هناك بطاقة عسكريّة في جيبي، فأخرجها أحدهم، وقال: «بس إحنا مابنعرفش نقرأ»، طلبتُ منه أن يعيدها إلى مكانها.

فجأة رأيت قاربًا آخر (لانش) أمامي، عليه أقدام كثيرة، وقال أحدهم: «أوومال فين الطيّار المصري؟»

أعتذر إليكم ثلاث مرات، أريد أن أخلد إلى النوم وسأعود إلى الكتابة في الصباح، تصبحون على خير.

***

يا صباح الخيريالي معانا، الكروان غني وصحانا.

تم نقلي كقطعة أثاث إلى قارب خفر السواحل، وتسلم أحدهم المسدس من الصيّاد، فرش أحدهم ظهري على دكة ضيقة، وانطلق القارب إلى مدينة المطريّة، فوق المياه؛ يهتز القارب بقوة واستمرار، ومع كل اهتزازة يرتفع ظهري إلى أعلى ثم يعود ويصطدم بالدّكة فأصرخ.

بعد مئات الصرخات وصلنا المطرية، كان في انتظاري ضابط من المخابرات وسيارة إسعاف وطبيب، نقلوني فوق سرير الإسعاف. سألني ضابط المخابرات إنّ كنتُ أريد شيئًا؟ طلبت منه أن يتصل باللّواء طيّار ماهر شنودة (قائد قاعدة إنشاص) ويخبره بسلامتي، لأنَّه زوج أخت زوجتي، طلبت من المسعف أنّ يأخذني إلى مطار المنصورة أولًا، فتعجب.

قال المُسعف: «حضرتك، لازم تروح المستشفى حالًا».

قلتُ له بصوت ضعيف: «المطار الأول أرجوك».

استسلم لرغبتي وأومأ برأسه: «نعم».

مكثتُ في الطّريق أكثر من ساعة، مع ألم بظهري لا يُحتمل، زاده اهتزاز سيارة الإسعاف لسوء الطّريق.

أظلمت الدنيا بشدّة، وصلتُ مطار المنصورة رغمًا عن المُسعف والطبيب المُذبان. قابلت «نبيل فؤاد» و«أميرياض» (لم تسلبه الحرب وسامته) وبعض الطيّارين، قال أحدهم «داحنا هنا بنقول ازاي طيارة سمير عزيز تتضرب!!!»، حذرتهم أنّ الطّائرات الإسرائيلية تنصب الكمائن، وعليهم أنّ ينظروا خلفهم

كثيرًا، أقبل بعض الميكانيكيّة وسلّموا علي، وجوههم مُتعبة، فهم يقضون اللّيل عاكفين في الدشم على صيانة وتجهيز الطّائرات للصباح.

طلبتُ من المسعف نقلي إلى المستشفى.

في الطريق إلى مستشفى المنصورة، أخذت مخدرواستغرقتُ في نوم عميق.

***

حينما استيقظت أول مرّة كانت الغرفة تدور بسرعة وكل شيء غارقٌ في الصمت، ممدد فوق سرير حديد أبيض وجسدي مغطى بملاءة بيضاء، أفرولي بجواري مشقوق لنصفين، وظهري داخل الجبس، نعم، كسر في العمود الفقري. فكرتُ في زوجتي لا بُد أنها الآن بجوار الهاتف تنتظر مكالمة مني، كعادتي في نهاية كل يوم.

خانات خالية في الذاكرة.

استيقظتُ للمرّة الثانية، وجدتُ زوجتي الرّائعة تحبس دموعها، متوترة كالجحيم وتنحني على كتفي الأيسر، كنتُ لا أشعر بالإبر الّتي يغرسها الطبيب في قدميّ واكتشفت أني لا أشعر بكل عظمة في نصف جسدي الأسفل، لا ألم لوخزات الإبر على الإطلاق. أردت أن أمسك يد زوجتي و أقبلها، لكن ذراعي الّتي بجوارها لم تستجب، هددتها، نظرتُ إليها بطرف عيني ولم أحرك رأسي، تحركت ببطء. أصابني الذهول، حاولتُ أن أحرك أصابع قدميّ، ساقيّ، لكن بلا فائدة، كلما فشلتُ في تحريك عظمة تفتحت عيناي أكثروتسارعت دقّات قلبي، صرخت حتى أتأكد أنّي لم أفقد النطق.

أصابني اليأس وتوقفت.

«أوه، شلل نصفي وكسر في العمود الفقري»، قال الطبيب بصوت خافت.

مر على زواجي شهران فقط، زفرت زوجتي بصوتٍ عالٍ، ضغطت على يدي الّتي بجوارها ورفعتها ناحية فمها، وقبلتها، لم أشعر بشيء وكأنها ترفع يد غيري.

أصابتني الصدمة وحاولت أن أحرك رجلي، و أقول لهم أنّها ما زالت تتحرك، تتقافز أشياء كثيرة داخل عقلي، متاهات أدور فيها، يا إلهي إنّها لا تتحرك، أغلقت عينيّ، كرسي متحرك، لن أنتصب و اقفًا مرّة أخرى، مُقعد يلهث خلف الكلمات المتقاطعة، ظلام دامس، هكذا أصبحت حياتي.

خانات خالية في الذاكرة.

***

في قرى مصر، هناك نوعان من طائر الحمام، حمام برّي لا يمكن السيطرة عليه، وحمام بلدي يمكن ترويضه وتربيته. وهناك طريقتان لتربية الحمام. الطريقة الأولى، وضع أعشاش لها في أماكن مناسبة يأوي إليها في نهاية اليوم أو بناء أبراج بها أعشاش. والطريقة الثانية حبس الحمام في عشّة صغيرة، لن يغادرها طوال حياته، لن يرى السّماء، الحمام المحبوس لم يتعلم الطيران وهو صغير، لذا لن يطير أبدًا حتى ولو غادر العشّة.

لا تندهش حينما ترى حمامة لا تستطيع الطيران، ربما لأنَّها لم تتعلم الطيران وهي صغيرة، أو لأن جناحها مكسور، أو لأنها مشلولة مثلي.

فتحتُ عيني للمرّة الثالثة، استقبلني صراخ وداع في الخارج، رفعتُ رأسي، وجدتُ أمي ووالد زوجتي، والأنظار كلها مصوبة عليّ. خيّل إليّ أنّني رفعتُ يد أمي وقبلتها.

مساحات خالية في الذاكرة.

***

حقًا، الحمد لله.

رأسي كانت فوق وسادة من البنادق، هذا كل ما أتذكره حينما فتحتُ عيني للمرّة الرابعة (لستُ متأكدًا من العدد).

وجدتُ نفسي في الشّارع أمام بوابة المستشفى، الشّمس لم تُشرق بعد، ممدد فوق نقالة بجوار سيارة ضخمة، بدأت الرّوح تدب في يدي بقوة، لم أصدقها، حركتها مرة ثانية وثالثة ورابعة.

أمسكت ممرضة طرف الملاءة من ناحية قدمي وبدأت تسحبها من فوقي، كنتُ عاريًا تمامًا، سحبَتها قليلًا فأمسكتها من الطّرف المقابل ورفعتُ رأسي إلى أعلى، تألمتُ وصرختُ فيها، تقهقرت خطوتين إلى الوراء، عادت وجَذبتها بضعف وريبة، أخبرتها بغضب أنّني عارٍ، قالت بضيق: «دية عُهدة». تَدَخل ضابط في؛ معركة الملاءة؛ وهو يضحك، تعهد بإحضارها لها، فتركتها.

خانات خالية في الذاكرة.

***

فتحتُ عيني للمرة الخامسة، يبدو أن الساعات جرت بشكل أسرع و أنني نمتُ لوقت طويل، نثرت الشّمس نورها على استحياء، صباح جديد غير مرغوب فيه، كنتُ مدفونًا داخل سيارة لنقل مصابي الحرب، رغم وجود نافذة صغيرة فالجو بداخل السّيارة خانق والعرق الغزير يلدغ جسدي من كل ناحية كالناموس، وبفضل درجة الحرارة العالية كاد جلدي أن يذوب. ما زلت أتألم كلما يأتي المشهد على بالي، السيارة مقسمة إلى رفوف مُكدّسة بالجنود مبتروي الأطراف، شبه عرايا، أجسادهم سمراء من التصدي لأشعة الشّمس لساعات طويلة، أجسادهم مُرقعة بالشاش الغاطس في الدّم، قطرات الدّم تتساقط على الأرض

وآهات الصراع مع الموت تملأ أذني. رائحة الدّم مقززة وتُثير الغثيان، والصدمة جاثمة فوق الوجوه.

أحدهم استيقظ فلم يعثر على يديّه، ظل يبحث عنهما ويكلم نفسه حتى نهاية الطريق، هناك اثنان يحدقان في اللاشيء ولا يتحركان، غادرت روحهما، فما عند الله أفضل.

ارتشفتُ نفسًا عميقًا وملأ الموت صدري، أغلقت عينيّ ولم أرغب في فتحهما مرة أخرى، لا بُد أنهم يحسدونني، فرغم أن رجليّ لا تتحركا إلّا أنها مازالتا تزيّنان جسدي، بجواري مباشرة جسد بلا ذراعين، حركتُ ذراعي إلى أعلى، إنّني قعيد لكني أملك شيئًا يميّزني، لي يد تستطيع رفع فنجان قهوة كل صباح ووضع أسطوانة أم كلثوم فوق صحن الجرامافون.

قضيتُ وقتًا سيئًا حتى أنني لم أتذكر أنّ أتألم، ولم أسأل نفسي: «إلى أين؟»، بقيتُ صامتًا حتى وصلنا المستشفى الفرنساوي بالعباسية صباح يوم التّاسع من أكتوبر/ تشرين الأول، فيما بعد دوّنت في ملاحظاتي «رحلة الحافلة الحزينة».

استقبلني على باب المستشفى؛ مقر الإقامة المؤقت، الدكتور أحمد رامي (ابن الشاعر أحمد رامي)، كان هناك صراخ ألم تهتز الأرض من تحته، الكثير من مُصابي الحرب ومازال ضيوف وجيران جدد يصلون بسيارات الإسعاف، القليل منهم يستطيعون المشي، زحام شديد لدرجة أنّه يصعب العثور على مكان لقدم، كانت هايدي تشق الحشود تجاهد وتدفع بحثًا عني ومعها ماجدة الّتي تجهل ما جرى لنصفي الأسفل (لا أدري كيف دخلتا المُستشفى العسكري؟ لا بُد من تصريح)، رأيتهما ولم أستطع مُساعدتهما، كان الطبيب يتفحص الأشعّات الّتي معي، لا أتذكر متى دخلتُ غرفة الأشعة في مُستشفى المنصورة؟

تكلّمت هايدي مع الطبيب باللُّغة الإنجليزية، كتمت ماجدة صرختها بيدها ونظرت بعفويّة وشفقة ناحية قدميّ، قال وجهها أشياء كثيرة، خدشت نظرتها غير المقصودة قلبي.

***

كانت مادج تُدمن قراءة الروايات البوليسية وتتدعي أنها تستطيع معرفة شخصية القاتل في مُنتصف الرّواية، قالت لها شقيقتها:

«أستطيع كتابة رواية، ولن تعرفي القاتل إلّا في نهاية الرّواية».

من أجل التحدي كتبت أجاثا روايتها الأولى؛ «لغز جريمة ستايليس»، ولمدة عام رفضت دور النشر طباعتها.

هكذا اكتشفت أجاثا كريستي[1] أنّها ولدت لتكون كاتبة. هناك لحظة يكتشف فيها المرء الذات العبقرية، تأتي مُبكرًا وربما تتأخر، وقد لا تأتي أبدًا ويعيش المرء متخبطًا في الحياة.

لماذا أنت هنا؟ من أجل شخص، هدف، لا شيء؟، من أجل الحياة؟، إنها ليست هدفًا، على كلٍ تأكد أنّ الله -رغم أنه غنيٌ وعظيمٌ بذاته- زرعك هنا لغاية ما، وعليك أنّ تبحث عنها، لا تجعل الحياة تجرك في طريقها مع الملايين، توقف قليلًا، فكّر، توصل إلى سر وجودك، إنَّها صلاة، عمل لن يقوم به أحد غيرك.

لا أتذكّر متى اكتشفتُ أنّني ولدتُ كي أطير؟ أعتقد أنّ ذلك كان مُبكرًا قبل أنّ تنمو لي ذاكرة تسع ما يجري. إنّني مدين إلى الله بأنّ جعلني أكتشف قدري مُبكرًا، طيّار بأخلاق الصقر (قدر الإمكان).

[1] كاتبة إنجليزية، اشتهرت بكتابة الروايات البوليسية.

هل هناك صقر قعيد!!!!

***

لم أكسب حتى الآن ماراثون الشّهادة، فاز به كثيرون وكان «إسماعيل إمام» آخرهم، وهو من القلائل في هذا العالم الّذين خلقوا ليطيروا، ومثل كل الطيّارين المحترفين نهايته غير مُتوقعة.

عادت طائرة إسماعيل بسلام إلى مطار أبو حماد، وبينما الطّائرة في السّماء تتأهب للهبوط على الممر، كانت صواريخ ستريللّا تتأهب لاستقبالها، كان التعارف بين الصواريخ المصريّة والطّائرة المصريّة مفقود لسبب ما. اقتنع موجه الصواريخ أنَّها طائرة مُعادية فاستقبلها بغضب واستياء. ناور إسماعيل بالطائرة و أفلت من الصّاروخ الأول، لكن الصّاروخ الثّاني نجح في إسقاط طائرته وتفحم بداخلها.

المدهش أنّه تبين فيما بعد أنّ من أسقط طائرة إسماعيل كان ابن خالته.

***

كنتُ أرقد على ظهري في زنزانة لا تتغير بالمستشفى الفرنساوي، مُحاصرًا بعالم الموت والصداع وروائح الغرغينا ومتحف الأدوية والحقن، لا أتحرك وبلا أحلام ومُستقبل كعجوز تجاوز المائة؛ لا ينتظر سوى الموت. أرى كل شيء من حولي أسودًا؛ حياة؛ مُستقبل. أمضي قسمًا عظيمًا من التوقّعات في تخيّل قدميّ تدبان على الأرض. أطارد أخبار المعارك وبيانات القيادة العامة في الصُحف ومذياع يقبع فوق منضدة بجوار السّرير وفي نطاق يدي، أحاول إبقاء نفسي في سِياق الأحداث، أتابع برنامج؛ صوت المعركة، يُقدمه المراسل الحربي؛ حمدي الكُنيّسي، من وسط المعركة، أتذكر ما قاله جندي تحت القصف: «الحرب

بالنسبة لنا فُسحة، لأنّ التدريبات كانت أقسى منها بكثير»، وقال آخر «أول ما قالوا: اعبر، ماكنتش مصدق نفسي، كنا بنسبق المعدات بتاعتنا، المدفع اللي المفروض يشيله تلاتة، كان واحد بس بيشيله ويجري بيه ويعبر القناة ويتسلق بيه السّاتر الترابي».

***

في الثالث عشر من أكتوبر/تشرين الأول استمعتُ إلى أول بيان سيء في الحرب، بيان القيادة العامة رقم 34 عن اختراق طائرتين أمريكيتين من نوع SR-71 Blackbird مجالنا الجوّي، في تمام السّاعة الواحدة وخمس دقائق بعد الظهر، على ارتفاع 25 كيلومتر (خارج مرمى الصواريخ وقتها) وبسرعة تعادل ثلاثة أضعاف سرعة الصوت، كما ورد في البيان.

بدا لي أن الجيش الإسرائيلي في حالة يُرثى لها، عاري الظهر وغير قادر على رفع ذراعه ليقذف حجرًا، ضعيفًا لدرجة جعلت أمريكا تتدخل مباشرة للدفاع عنه وإنقاذه قبل فوات الأوان، فهذا النوع من الطّائرات لا يملكه سوى الولايات المُتحدة الأمريكيّة، حلق الطيّاران الأمريكان فوق سيناء وقناة السويس وبورسعيد والقاهرة حتى نجع حمادي، ونقلوا ما يحدث إلى واشنطن وجولدمائير في تل أبيب.

خبأتُ شعوري بالقلق عن الجميع.

ظهرًا، استلمت غرفتي باقة ورد كبيرة من الفنانة: ميرفت أمين، الكارت عبارة عن صورة أبيض وأسود لوجهها، كتبت على الخد الأيمن بالقلم الأحمر: «أتمنى للبطل الشفاء العاجل» وفي الأسفل التوقيع: «ميرفت أمين».

كنتُ أعرف الفنانة المشهورة جيدًا، وكذلك هي، كان اليوم مُخصصًا لزيارة هايدي (يوم لزوجتي وأحيانًا ماجدة ويوم لأبويّ)، قرأت هايدي الكارت وقالت بنبرة حادة: «ميرفت أمين مرة واحدة»، لم يكفِ لإرضائها كلمات الغزل ومحاولات ضد جمال ميرفت أمين (ليسامحني الله).

على نحو مُتوقّع، غادرت المستشفى غاضبة.

***

وضعت الدبابات والطّائرات الأمريكية (الجسر الجوّي) والمعلومات الّتي التقطتها الـ (Blackbird) الجيشَ الإسرائيلي على جهاز التنفس الصناعي بعد أنّ سقط مغشيًّا عليه في ساحة المعركة من هول الصدمة، وبعد أنْ فشلت الطّائرات الإسرائيلية خلال هجومها ثاني وثالث أيام الحرب، تجمعت في الرّابع عشر من أكتوبر/ تشرين الأول من أجل الانتقام، أثناء ذلك كانت هايدي تتهيأ للانقضاض على باقة الورد المُهداة إليّ من الفنانة ميرفت أمين، والفلاحون بجوار مطار المنصورة يكبسون القطن داخل أوعية من الخيش، يفصل بينهم فقط سلك شائك.

اختفت باقة الورد في ظروف غامضة، شخصٌ ما تسلل إلى الغرفة، وفي غفلة مني خطف الباقة، ضاع الكارت، كنت أود الاحتفاظ به للأبد ونسج الأساطير حوله. زارتني هايدي مع ماجدة رغم أنّ اليوم لم يكن مُخصصًا لزيارتها، فهمتُ أنّها حضرت من أجل الانتقام من المسكينة باقة الورد. قالت هايدي لماجدة: «شوفتي، سمير طلع عارف ميرفت أمين وبعتاله بوكيه ورد»، ردت ماجدة: «إزاي!!، دي معايا في كلية البنات، وعارفه سميركويس، ولما عرفت إنَّه مصاب في الحرب، اتصلت بيا وطلبت عنوان المستشفى».

اعتقدتُ أنّ حرائق هايدي قد انطفأت، لكنها لم تصدق ماجدة وحتى يومنا هذا تظن أنّ اتفاقًا أُبرم خلف ظهرها.

في الثالثة والربع، قرب ذبول زهرة النّهار وصل إلى غرف العمليات بجميع المطارات إنذار من مواقع المُراقبة بالنظر والرادار على ساحل البحر المتوسط بأن هناك عشرين طائرة فانتوم قادمة من البحر في اتجاه بورسعيد ودلتا النيل، لم يتفاجأ أحد، على الفور أمر قائد اللّواء الجوي 104 بخروج ستة عشر طائرة ميج 21 من مطار المنصورة للتصدي للفانتوم حال اقترابها من المطار، واصلت موجات الطّائرات الإسرائيلية وصولها إلى أرض المعركة حتى بلغ عددها أكثر من مائة، وهرولت طائرات الميج المصريّة من المطارات للتصدي لها، وأصبحت سّماء المنصورة الشّاسعة مزدحمة بالطائرات.

اهتزت السّماء بشدّة لأضخم وأطول معركة جوّية بعد الحرب العالميّة الثّانية، استمرت 53 دقيقة من الإثارة، هبط خلالها زملائي مرّات للتزود بالوقود والسّلاح، فالطائرة الميج لا تمكث في القتال الجوّي أكثر من عشر دقائق بينما تمكث الفانتوم ساعة كاملة. والطيّار داخل القمرة كان الميكانيكيّة يرفعون الصواريخ ويثبتوها بجسد الطّائرة بدون الرّافعة، وفي وقت قياسي يجهزون الميج مرّة أخرى للمعركة.

بأعصاب مشدودة تابع أهالي القرى المجاورة؛ معركة المنصورة الجوية، من فوق أسطح البيوت، ومن الأجران، ومن وسط زراعات القطن بعدما توقفوا عن جمع الذهب الأبيض، لم تفارق أعينهم وقلوبهم السّماء لحظةً واحدة.

ومع كل طائرة تركض ناحية الأرض وخلفها ذيل من النار، يُهرع الأهالي إلى مكان سقوطها، يقتربون أكثر بدون خوف لاكتشاف لأيّ فريق تنتمي؟ وحينما يجدون على جسدها وشم نجمة داود، يشعرون بالفخر، يهلّلون، «الله أكبر، تحيا مصر».

بعد انتهاء المعركة؛ امتلك الأهالي سبعة عشر طائرة إسرائيلية محطمة وسط الأراضي الزراعيّة، طافوا بالحطام والزغاريد أزقة قُراهم، التقطوا معه الصور التذكاريّة، وصنعوا من قطع الألومنيوم هوائيات للتلفاز وألعاب للأطفال، على يد سلاح الجوّ المصريّ سقطت طائرات الفانتوم مع هالتها وأصبحت دُمى يلهوا بها الأطفال في الشّوارع.

كان ذلك اليوم عيدًا لهم وأصبح عيدًا للقوّات الجوّية.

في العاشرة مساءً أذاع راديو القاهرة بيان القيادة العامّة رقم 39، حاولت الاتصال بمطار المنصورة للاطمئنان على زملائي، لكن لم يرد أحد.

***

15 أكتوبر/ تشرين الأول.

صباحًا، زارتني خالتي وزوجها، قالت لي: «إذا نظرت إلى قدميك، ووجدتها لا تتحرك، فأحمد الله أنك رأيتها»، شعرتُ أني مثيرًا للشفقة.

أثناء اللّيل، كالصوص عَبَرت قوّات شارون قناة السّويس من ثغرة بين الجيشين الثّاني والثّالث (بالتأكيد اكتشفتها الـ Blackbird)، واختبأت دباباته بين الزراعات بمنطقة الدفرسوار، أكره قول إنني حينما وقعت الثغرة أصبحتُ قلقًا على المُستقبل، وأخشى أن تكون المعارك القادمة في القاهرة وليس في سيناء، كنتُ أسأل نفسي باستمرار: «لما حدث لي ذلك في بداية الحرب؟»، «لماذا أنا هنا بعيد؟»

***

ما عدتُ أذكر آخر عهدي بالمشي.

لا أومن إلّا بالحقائق، وهناك صديق دائمًا ما يشبهني بمستر جرادجريند في رائعة ديكنز[1]، أوقات عصيبة.

«إننا لا نحتاج في حياتنا هذه إلّا للحقائق.»

هذا ما كان مستر جرادجريند يردده دائمًا، لكن بالنسبة لرجل مشلول مثلي غير قادر على النهوض فإنّ عليه كل يوم أنّ يهرب من أمام الحقائق أكثر من مائة مرّة. عشرون يوم ويوم في القبر، السجن، استسلم كلّ ساعة لفظاعة قيود قدميّ، يقتلني انتظار اللاشيء، ذقني تتعزز وجسدي ينحل، كبرتُ عشرة أعوام على الأقل. توقف القِتال وبالنسبة إليّ توقفت الحرب يوم أنّ سقطت طائرتي. ربما أجن وتتلف خلايا عقلي الّذي لا ينحرف عن التفكير في الطيران. الليل مثل النهار، لا أنام، ينهشني المُستقبل المجهول، يتعارك مع حاضري، كنتُ أسأل نفسي: «هل كنتُ على صواب حينما عدتُ إلى معركة بورسعيد بطائرة بها مدفع خرب وبطيئة كالبطة؟»، أقول إلى الله: «أنت تعلم كلّ شيء، و أنا في حاجة ماسّة للمُساعدة».

إلى أنّ جاءت تلك اللّحظة التي نظر فيها الله إليّ، كما نظر إلى بني إسرائيل وخلّصهم من العبودية. لم يتركني الله مرة واحدة للحظ. دائمًا ما يُدهشني، ينتشلني من طائرة تحترق، من وسط حزمة من الصواريخ، وحتى من وسط الشظايا والشلل، ومن له إله فلا ينبغي أنّ يخاف.

---

[1] تشارلز ديكنز؛ كاتب إنجليزي، من العصر الفيكتوري.

مُجددًا، أصبحتُ قادرًا على تحريك ساقيّ وأصابع قدميّ، ولكن بألم وببطيء شديدين، خلصني الله من عبوديّة الشلل بسبب صلوات الجميع من أجلي، رائع، لكن كلنا نُريد من الله المزيد، كلنا نُريد كلّ شيء، يا إلهي هذا لا يكفي للطيران مرة أخرى. استدعيتُ الممرضة والطبيب على جناح السّرعة، كنتُ في حاجة إلى أحد يؤكد لي أنّني لا أحلم ولم تضرب عقلي نوبة هلوسة.

وقفت عند قدمي، قالت: «حرّك صوابع رجلك الشمال» .... «اليمين» .... «الاثنين».

سألتُ الممرضة: «بتتحرك؟»

أجابت: «أنت مش شايفها بتتحرك!!!»

«أيوة، ولكنّ عايز أتأكد.»

طوال اليوم بقيتُ أحرك أصابع قدميّ؛ غير مُصدق. الجميع أكدوا أنّها معجزة لا نظير لها، وحتى اليوم ما زالوا يؤكدون. سريعًا برز الحَدث؛ ونقلته المُمرضات.

***

أول ليلة لي في البيت، بالطبع كنتُ مُستلقٍ فوق السّرير منذ أنّ وصلتُ، أعمل بالتحديق في سّماء الغرفة، اكتشفت عيوب بالدهان. زل عقلي في مستنقع التفكير بالاحتمالات القبيحة، سأمكث هنا طويلًا، الأطباء يكذبون، من غير المعقول أنّ أقف على قدميّ مرة أخرى، هل ستُجدي نفعًا جلسات علاج طبيعي وتدريبات على المشي كالأطفال؟

في الصباح، كنتُ في عجلة من أمري ومتحمسًا، مُشتاقًا إلى الركض، أفاق عني النعاس في السّاعات الأولى، انتظرتُ في السرير حتى التّاسعة، كانت هايدي تدس رأسها بين وسادتين، أزحتُ الوسادة العليّا وأيقظتها، قامت وجهزت

الإفطار، دخلت الغرفة وهي تحمل صينية الطعام بين يديها، تعثرت بنفسها، حاولت أنّ تتوازن مثل كفتي ميزان، نزعتُ نفسي من السرير قبل أنّ تقع، يُمكن لأيّ شخص غيري القيام بهذا بسهولة، فشلتُ فوقعت، أعتذر إليكِ، الأسوأ ينتظرني، تمنيت لو كان الطيار الإسرائيلي سحق رأسي في فايد، لا، من الأفضل أنّ يصطاد الدفاع الجوي المصري طائرتي بالخطأ كما حدث مع «إسماعيل إمام».

لم تتفوه بكلمة؛ نهضت بسرعة؛ و اندفعت إلى خارج الغرفة، أظنها بكت.

طلبتُ منها أنْ تصعد معي إلى سطح المنزل، كي أتدرب على المشي كطفل رضيع. بمشقة ومساعدة منها بدأت أصعد درج السّلم، سمعتُ صوت أنفاسي العالية، صرختُ في وجهها، لا لن أتمكن من ذلك، طلبتُ منها أنّ تعيدني مرةً أخرى إلى الشقة، توقف الكلام في فمها وبكت، قلتُ لها: «لولا الظلام ما كان النور سيبهرنا».

***

لستُ مجرد تمثال منسي، حتّى حبة الرمل تُحركها الريح، قد يكون بداخلي نجيب محفوظ، بيكاسو، دافنشي. جلستُ فوق السرير لأكتب قصة عن الحرب. لا، لا أريد تذكر الحرب، والتعمق فيها، كتبتُ ثلاث صفحات؛ قصة قصيرة، ذات عنوان مُلائم؛ المرأب. تحكي قصة رجل يعمل بمسح أرضيات الحمامات وتنظيف المراحيض، وذلك بعد أنّ فقد عمله الأساسي؛ ومركزه المرموق كسيد، باع كلّ شيء؛ كي يُسدد ديونه، وهجرته زوجته. وذلك لسبب يُحب تذكره والحديث عنه.

ومثل الدفاع الجوي الإسرائيلي الذي لا يُصب هدفًا منذ المرة الأولى أو الثانية أو حتى الثالثة، نقحتُ القصة مرات ومرات؛ وتألمت أصابعي لذلك.

***

كررتُ مُحاولة الصعود إلى السطح، من الأمور المحبطة جدًّا أنّ أصعد درج ثلاث طوابق فقط في زُهاء نصف ساعة قابضًا على الحاجز كي أحفظ توازني، وأجلس للاستراحة ثماني مرات، كان الله كريمًا في المرة الأولى حينما حبس الجيران في شققهم ولم أقابل أحدًا منهم، أظن أنّ البعض يرغب في رؤيتي هكذا، خصوصًا رجل في الطابق الأخير، يضمر الحقد لكل ناجح لأنّه لم يكن عاديّا مثله، رجل من الثلاثينيات كسيارته الأوكلاند، له بريق العملة، لكنها للأسف مزيّفة ولا قيمة لها، يعاني فرط في الرزانة والوقار، ويرتدي ملابس داكنة تزيد من وقاره. سيفرح كثيرًا لأنّه لم يعد هناك ما يحسدني عليه، لو قابلني، سيضحك من داخله ويسألني عن حالي (كعادته) مثل محقق الشرطة مُتغطرس.

لكم أن تتخيلوا حينما قابلت أحد الجيران على السّلم، من الّذين لم يحصلوا على تعليمٍ كافٍ، ماذا فعل؟ و أنا أصعد ببطء شديد درجة درجة وعتبة عتبة؛ قصفني بنظرة شفقة قاسية؛ كما لو كنتُ ميتًا. توقف في مكان واسع و أفسح ليّ الطّريق كما لو كنتُ سيارة لوري طائشة تمر بجواره، وطلب مني أن أصعد أولًا، كما لو كنتُ عجوزًا أو امرأة. أغلقت أذنيّ إلى أن توقف عن قذف خطبة المواساة، حينها بدأت هجومًا مُضادًا، تكلمتُ بطلاقة ودون خجل، أخبرته أنّني فخور بنفسي وبما فعلته. إنّنا كثيرًا ما نفعل ذلك دون أن نشعر ونصدر على أشخاص مُعاقين حُكمًا بأنّ الموت أفضل لهم، لكننا لا نعلم ربما يكون أحدهم فخور بإعاقته، خسر يدًا أو قدمًا في العمل أو دفاعًا عن الوطن في حرب غيرت العالم ومجرى التاريخ.

و أنا طفل، كنتُ أصعد إلى السطح، أتأمل سّماء الرب و انتظر مرور الطائرات، أنتظر حتى تأتي النجوم، لا يحتاج المرء أن يكون فلكيًا كي يُدرك كم أن سّماء الليل رائعة. أما هذه المرة فلن أنساها أبدًا، ساعدتني هايدي في الجلوس فوق كرسي من الخشب بجوار السّور، يا إلهي، جميع النّاس في الشارع يسيرون على أقدامهم، القطة في الضفة الأخرى، حتى السّيارات لها أقدام تسير عليها، يبدو ذلك بديهيًا لشخص طبيعي، أما بالنسبة لشخص قعيد فإنَّ أول شيء ينظر إليه، الأرجل السليمة. تمنيتُ أنّ يُصبح الجميع مثلي، مُقعدين، حينها فقط سأتقبل الحياة، لقد اعتدتُ أنّ أكون مُميزًا، بينما الجميع يمشون كنتُ أطير.

أمسكت هايدي بيدي كطفل بعيد عن كتب تعلّم الأبجدية، دعتني إلى نزهة على الأقدام فوق سطح البيت، برج إيفل، إنّه في الركن الشّمالي، تمثال الحُرّيّة هناك، برج السّاعة في المنتصف (نظرا لحرص هايدي على اقتناء ساعات اليد)، أما جسر هايدين فكان مُنتصبًا بين عامودين، وهو جسر من الحبال والجريد عرضه ذراع ويربط بين قمتي جبلين شاهقين. حلقت طائرة في السّماء، قريبًا من السقف، تطلعتُ إليها كالأطفال، أوشكتُ على السقوط، أخبرتُ هايدي أنَّها طائرة ميراج، وأخبرتها كيف خدعت ليبيا فرنسا. فحينما قامت الحرب، منعت فرنسا تصدير السلاح إلى قائمة الدول المُتحاربة، لم تكن ليبيا ضمن القائمة، ذهبت الأخيرة إلى فرنسا واشترت طائرات لصالحها، و افقت فرنسا، لكن في الحقيقة كانت الطائرات هدية لمصر.

يبدو المشي بطريقة طبيعية بعيد المنال، طلبتُ من هايدي البحث عن شقة مفروشة، بعيدة، لأنني لا أتحمل نظرات الشفقة التي يُرسلها الجيران بمحبة، «شبرا مثلا»، سألت زوجتي. نعم، إنني أريدُ قضاء أيامي وسط ذكريات الطفولة، يا إلهي، لا أريد أن يراني أحد من أصدقائي هكذا، حسنًا، «المعادي؟»، لكن

أحد أصدقائي يسكن هناك، «مَصيف العجمي؟»، تذكرتُ حينما كنتُ أزوره في العطلات، وأدوس أزقته الضيقة بالدراجة الهوائية، وأشتري المُثلجات من كشك عند البحر، وأشوي اللحم فوق سطح الشاليه. حتّى لو ركضت ناحية أبعد مكان في العالم، ستركض إعاقتي خلفي ثم تسبقني إليه وتلبسني.

وبينما النجوم تُشعل الليل لملمت هايدي ملابسنا، أمّا أنا فنسختُ قصتي بالآلة الكاتبة، وعند الفجر غادرنا الشقة، صعب، لم أكن أرغب في الهروب، تركنا الهاتف يرن وصندوق البريد يستقبل. سأعود، أقسم سأعود على قدميّ.

عند ظهيرة يوم تلا اختفائي، توقفت سيارة جيش أمام العمارة، خرج منها جندي وسأل أحد الجيران عن شقتي، صعد السُّلم، طرق الباب ولم يُجيبه أحد، سأل مرةً أخرى، لكن لا أحد يعرف أين ذهبنا؟، وما إنّ كان غيابي سيطول؟

***

الشقة قَعر كئيب، حارة والأثاث قذر والنوافذ ترتج كأنما خائفة على الدوام، يصدمها هواء صحراء مَدينة ناصر القوي، خصوصًا عند الليل. سلمتُ هايدي قصتي، اكتشفت أنها فقدت الكثير من وزنها وخديها أصبحا فارغين. أرسلت القصة بالبريد إلى أعرق جريدة في مصر، جريدة الأهرام. تملأني الثقة، ونويت أن أحولها إلى قصة طويلة، وذلك بعد أن أتلقى شُكر وثناء من نجيب محفوظ. بعد أسبوعين، تأكدتُ من هايدي أنها أرفقت مع القصة طريقة للاتصال بي.

مع مرور الوقت؛ نشأت خصومة بيننا.

وبعد خمسة عشر عامًا، ليلًا، حضر إلى شقتي بضاحية مصر الجديدة مُصور وصحفي شاب؛ أنيق، معهما حقيبة بها كاميرا وأوراق وجهاز تسجيل صغير، يعملان لحساب جريدة الأهرام، جلسا في الصالون، اعتذرت عن تسجيل لقاء

إلّا بعد نشر قصتي، كان الصحفي يتكلم باللغة العربية الفصحى، سألني: «متي أرسلتها؟»، حتى يبدو أنني لم أكن مُهتمًا، أخبرته أنني لا أعرف التاريخ بالضبط ولكن على ما يبدو في بدايات العام 1974، فابتسم، لم يكن يتصوّر ذلك. انصرف و اتصل بي هاتفيًا، أخبرني أنّ البحث عن إبرة في كومة القش أسهل من البحث عن قصتي، وسألني إنّ كنتُ أحتفظ بنسخة منها، قام بإغرائي: «سأنشرها مع اللقاء»، لا يُمكنني الرجوع. عاود الاتصال بالبيت، وقتها كنتُ فعلًا في غرفة عمليات القوات الجوية، لم يُكرر الاتصال و أنا نسيتُ الأمر.

***

بدأتُ جلسات علاج طبيعي، يموّلها الجيش، يأخذني جندي في سيارة يومي السبت والأربعاء من كلّ أسبوع إلى مركز للعلاج الطبيعي بحي الدقي البعيد، في الطابق الثالث!!، يتردد عليه مُصابي الحرب التُعساء.

حدثت أشياء في سريّة تامة وتم وضع خطة خداع استراتيجي، تولّت ماجدة وصديقة لها عمل وشراء نماذج مُصغرة لأشهر المعالم السياحيّة في العالم، برج باريس، ساعة بيج بين، أهرامات الجيزة، سور الصين العظيم. أثناء وجود هايدي في الكلية، أصبح سطح البيت الجديد عالم صغير، كانت مفاجأة سارّة جدًّا لها، وقفت على أطراف أصابع قدميها.

تراها هايدي نزهة ملكيّة على الأقدام حول العالم، وبالنسبة لي نزهة بالطّائرة، أتخيل الأماكن من فوق جناح طائرة روسيّة. رغم أنّ يدها في يدي فإنها كانت تخطو بجوار المعالم، أما أنا فأمرّ من فوقها.

أثناء يوميات إعادة التأهيل كنتُ لا أتحمّل رؤية الجيران الجُدد و أتحاشى مواعيد خروجهم وعودتهم، أحاول أن أتصرف وكأنّهم غير موجودين، وحينما يقابلني أحدهم أمتنع عن النظر في وجهه وكأنني اقترفتُ جريمة بشعة.

***

سقطتُ أرضًا بينما كنتُ أمشي ببطء، صرختُ بقوة، اهتز برج إيفل، رمت هايدي كوب الشاي، تسمرت في مكانها للحظة، أسرعت ورمت نفسها عند قدميّ، أمسكت رجلي اليُمنى، تألمتُ أكثر، أصبحت رجلي ثلاث قِطع، انكسرت. تعلّق التدريب والعلاج الطبيعي لأشهر، ضاع كل شيء.

يُلازمني هذا الحلم، يُلاحقني، فالأحلام مرآة للواقع. ثلاثة أشهر، نصف سنة، ثلاث سنوات، خمس سنوات، من يدري كم يلزم من الوقت كي أمشي كالأطفال؟

***

المستشفى الفرنساوي.

هأنذا جالس بجوار هايدي، أنتظر خارج حجرة الكشف، الجميع حولي صامتين، يقلّبون سقف الغرفة كأنما ينتظرون حُكمًا، يتفحصون الممرضة المزدهرة للغاية، وشخص واحد يطوف داخل صحيفة. حضرتُ اليوم من أجل الحصول على شهادة لياقة كي أرجع إلى الطيران مرة أخرى. فيما مضى: حينما وصلتُ إلى هنا كنتُ قعيدًا وبعد أربعة أشهر تغيرت أشياء كثيرة ولكن ليس بالقدر المطلوب.

مرّ ما يقرب من ساعة طغى فيها هاجس الرّفض الطبي على عقلي، كيف أطير و أنا لا أتمكن من الجلوس أو النهوض دون مُساعدة!!، أستطيع فقط حك ظهري بأظافري وتدليك كاحلي وذبّ ذبابة، و أقدرعلى التزحزح بعناء. وكشريط سينمائي مر في رأسي زملائي الطيّارين الّذين أصيبوا أثناء ست سنوات من الحرب وحتى خلال التدريبات، كنا نكذب على أنفسنا ونقول إنهم توقفوا عن الطيران والحرب وباتوا ينعمون بالحياة.

صدقوني، لن يفهم أحد مصيبة ما إلّا حينما تنزل به.

***

أيقظتني أصابع هايدي من دوامة الهواجس، تُشير ناحية ممرضة تخاطبني، قادتني من يدي بخطى بطيئة ناحية حجرة الكشف. في الطريق رمت طفلة نظرة شفقة في وجهي، ابتعدت كي لا أصطدم بها، اكتشفت أن إعاقتي تُخيف

الأطفال، توقفتُ لحظة لأتألم، شعرت كأنني طائرة مروّعة؛ مُصابة؛ تهرول على الممر؛ وهي تتمايل وتتعثر بنفسها؛ والجميع يفسحون لها الطريق.

من غير اللائق أن أدخل على الطبيب مسنودًا كعجوز يوشك على الموت، هبّ الطبيب و اقفًا وعاون هايدي في طرحي على مقعد أمام المكتب، صافحني بحرارة بالغة وأسنان بارزة من السعادة.

«اللي حصلك ده معجزة.»

«نشكر الله يا دكتور.»

كان الإرهاق على وجهه، طلب مني أنّ أنحني حتى تلمس يديّ قدميّ، حاولت أنّ أحني ظهري، تألّمتُ بشدّة، وصرخت كما لو عضني عقرب فجأة، تخلى ظهري عني، رفعت رأسي مسرعًا إلى أعلى.

حاولتُ مرّة ثانية ولم أفلح إلّا في الصراخ.

بدأتُ أتكلم، لكنه أغلق النّقاش دون أن ينظر إليّ، قال بجدية: «روّح وتعالى بعد شهرين».

انغرست عيني في عين هايدي، جمود تام للحظات، ابتسمت بلطف وقالت بضع كلمات دون أن تتكلم، أظلمت الدنيا كلّها دفعة واحدة، لا يدري العجوز بماذا أفكّر و أنا أعض شفتي؟ حاولتُ أن أنهض كي أقتله، لكن الدماء الّتي تغلي بداخلي لم تكن كافية لتمزق قيود قدميّ.

يا لبرودة الطبيب، ر افقني حتى الباب، وودّعني.

لم نرجع إلى البيت مباشرة، طلبتُ من هايدي أنّ تقود السّيارة على غير هدى ودون استعجال، تحاشيتُ الكلام معها فصوتي مُختنقًا.

توقفت هايدي بالسيارة عند نهر النيل أمام المعادي، أوقفت المُحرك، كان ظهري يؤلمني وهواء الشتاء البارد يندفع إلى داخل السّيارة دون دعوة، سألتُ نفسي، «هل الحياة تستحق هذا العناء والألم؟»، سألتني هايدي إنّ أصبحتُ لا أحبّ الحديث معها؟، أخبرتها أنّه لا شيء لدي لأقوله، لقد قُضي عليّ تمامًا وإلى الآبد.

***

انقطع صوت اليأس بداخلي وتركني سيانيد البوتاسيوم بسلام، سوف أربح معركتي، ما زالت طائرتي تنتظرني هناك فوق الممر، من أجلها يجب أن أواصل العلاج الطبيعي والتدريب على المشي.

أمام المرآة وقفتُ بصعوبة أتأمل رجليّ، فقدتُ اتزاني وأوشك حطامي على السقوط.

النّاس ثلاثة، إنسان يريد التخلّص من الماضي، وإنسان يُريد التخلّص من الحاضر والعودة إلى الماضي، وإنسان يُريد التخلّص من الماضي والحاضر ولا يُريد المستقبل لأنّه يخاف من المجهول. من أجل التخلّص من الحاضر أصبحت أتدرب على المشي فوق سطح البيت لوقت طويل حتى ظننتُ أنّني سأخسر ظهري للأبد، كان لدي هدف، وفعلتُ كل شيء من أجله، ونادرًا ما أُخفق. بعد شهرين، ثمة ضوء، أستطيع أن أحني ظهري قليلًا دون أن أصرخ وليس دون أن أتألم.

***

«انظر، السّماء صافية بشدّة، ما أجمل هذا اليوم!»

كنتُ الأول في الترتيب، بُشرة خير، قمتُ بمجرد أن ضرب الطبيب الجرس، دخلتُ عليه بقدمين تقويان على حمل جسدي بصعوبة، دخلت هايدي خلفي مباشرة، بدا وكأنّني أسبقها، لم يكن ذلك مقصودًا.

ابتسم الطبيب حينما رأني وقال بصوت هادئ: «مرّ شهرين بسرعة»، أخبرته أنّ ذلك بالنسبة إليه فقط.

لم أترك له الفرصة ليطلب مني شيء، ربما يُبدل الاختبار، يطلب مني أن أضع ساقًا فوق ساق. انحنيتُ بسرعة وبالطبع لم تصل أصابع يدي إلى قدمي، كان وجهي يقول أنّني تألمتُ.

قلتُ للطبيب: «خلاص أنا كده بعرف أوطي وألمس صوابع رجليا».

أخبرته أنني الآن أستطيع المشي على الحبل، فابتسم.

هزرأسه إلى أعلى وأسفل، رفع حاجبيه وملامح وجهه تتهمني بالنصب عليه، دون أن يحرك شفتيه أخرج من الحلقوم صوت يعني انه غيرمقتنع، كل ذلك فعله في وقت واحد.

«عايزترجع تطيرمرة تانية»، كأنما يوّد ذلك.

«أيوه يا دكتور»، قُلتها بانفعال ودون تردد.

سكت يُقلّب عقله ويتأمل الورقة أمامه، كان عقلي في حيرة ولم أكن واثقًا منه. أمسك القلم وبدأ يكتب، ويقرأ ما يكتبه بصوت مسموع، «أوصي بعودته إلى الطيران مرّة أخرى»، قالها ببطء ونبرة جادة.

أصبحتُ رشيقًا، سقط الشّقاء والعذاب النّفسي من على جسدي في لحظة واحدة ودفعة واحدة ولن يرمقني أحد بنظرة شفقة بعد الآن، لدي رغبة هائلة

في انتزاع نفسي من المقعد وأعيد التمركز بجوار هايدي واحتضنها، لكني خشيتُ أن أتعثر بنفسي وأسقط.

الآن أستطيع العودة إلى شقتي، أستطيع حجز تذكرة لحضور الحرب، يا إلهي، شكرًا لك.

***

خلال سنواتي، مرت أوقات عصيبة وأخرى أكثر قسوة. تذوقنا هزيمة، ابتلعت أمولًا وطائراتنا ومُعداتنا؛ عدا شيء واحد. لم يمض إلا ساعات قليلة؛ عطلة الهزيمة، قام الرجل الذي نحت أبو الهول وشق قناة السويس، فرفع الطائرة ودوّر فوة المدفع. دفئت قذائفنا الطقس فوق رءوس العدو، قبل أنّ يستريح ويرش الهواء بطلقات النصر وتغرس الفتيات الورد في البنادق، صرخوا، قذفناهم بالموت، صرخوا: «الحرب لم تنتهِ بعد».

منذ يناير 1982 و أنا أستمتع بخدمة الوطن بطريقة أخرى.

الحرب ما زالت قائمة.

سمير عزيز

تمت بفضل الله، خريف 2017

اللواء طيار سمير عزيز ميخائيل – سلاح الجو المصري

أنا رجل لقبيلة يحكمها القوّى، (لكن) يحب الحياة ويكره الموت، أمّا بالنسبة لقاطع النّقش سيجد الموت لنفسه.

- انتف ابن سن بنو، لوحة صخرية، المتحف النوبي، أسوان.